الكتاب: أهل البيت في الحياة الإسلامية
المؤلف: السيد محمد باقر الحكيم
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

أهل البيت عليهم السلام
في الحياة الإسلامية
الإمامة
القسم الأول: النظرية
آية الله السيد
محمد باقر الحكيم

المدخل

المناسبة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، والصلاة والسلام على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا بقية الله في أرضه (عج)، والسلام على شهداء الإسلام في كل مكان منذ الصدر الأول للإسلام وحتى شهداء هذا العصر.

في البداية أتقدم بالتعازي الحارة، لمناسبة ذكرى شهادة سيدنا ومولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حيث صادفت هذه الذكرى يوم أمس ونحن وإن كنا

ننتمي إلى الإسلام وإلى النبي وأهل بيته الكرام بصورة عامة، ولكننا ننتمي إلى هذا الإمام الهمام الذي كان له دور عظيم في حياتنا وحياة المسلمين عموما، فإن الإمام

الصادق عليه السلام واتته ظروف خاصة مكنته من القيام بعمل عظيم على مستوى العالم الإسلامي وعلى مستوى بناء الجماعة الصالحة المتمثلة بأتباع أهل البيت عليهم السلام ، حيث كان الإمام الصادق عليه السلام الإمام الثالث من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين طال بهم عهد الإمامة نسبيا وكان أطول أئمة أهل البيت عليهم السلام عمرا، باستثناء سيدنا ومولانا الإمام الحجة (عج)، وقد قام الإمام الصادق عليه السلام باعتبار هذه الخصوصيات من ناحية، والظروف السياسية المحيطة به من ناحية أخرى، وهي ضعف الدولة الأموية وبداية تأسيس الدولة العباسية، كل هذه الظروف وما يشبهها هيأت له فرص نادرة تمكن فيها الإمام عليه السلام من أن يديم حركة الأئمة عليهم السلام في الدفاع عن الإسلام والقيام بواجبات الإمامة تجاه الأمة الإسلامية، وبصورة خاصة تأسيس وبناء الحوزات العلمية، وتوسيع نشاطها في العالم الإسلامي، حتى أصبح الإمام الصادق عليه السلام عنوانا لها – أيضا – والأستاذ الذي تربت عليه المدارس الإسلامية، وأخذ منه مختلف علماء الإسلام وعلى مختلف مذاهبهم.

الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حديث واسع، ونحن نعيش هذه الأيام ذكرى شهادته، ولذلك أحاول أن أبدأ بموضوع مهم بمناسبة هذه الذكرى، يرتبط بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الموضوع وهو بحث

دور (أهل البيت في الحياة الإسلامية) بصورة عامة، ولا زال ذلك أمنية في نفسي أن أوفق لتناوله بصورة واسعة نسبيا، ولكن (ما لا يدرك كله لا يترك كله) و (لا يترك الميسور بالمعسور)، وقد يتيسر لنا الحديث هنا بصورة عامة ومحدودة حول هذا الموضوع.

ومن هذا المنطلق سوف أشير إلى عدة أبعاد، وأحاول في هذا المجلس الشريف أن أتناول

هذه الأبعاد حول أهل البيت عليهم السلام، لأن هذا المجلس الشريف – وببركة أنفاس الشهداء والعلماء وأرواحهم الطاهرة، وإخلاص الإخوة الأعزاء الذين لا زالوا يتفضلون علينا بالحضور في هذا المجلس والمشاركة فيه – أصبح مجلسا ثقافيا مهيئا لتناول مثل هذه الموضوعات الفكرية والعقائدية.

وسوف أكتفي فيه هذه الليلة بذكر موضوع البحث وبعض خصائصه على أن نبدأ إذا وفقنا

الله تعالى في تناول هذا البحث في الليالي الآتية، كلما سنحت الفرصة لذلك.

موضوع البحث
أهل البيت عليهم السلام كما نعرف كان دورهم الأساس هو الإمامة وامتدادا للرسالة الإلهية الخاتمة التي جسدت التكامل في وحدة النبوة والإمامة، وكان وجودهم تعبيرا عن امتداد هذه الرسالة في خط الإمامة، هذا هو العنوان العام في دور أهل البيت عليهم السلام، ولكن هذا العنوان العام قد يعتريه شئ من الغموض، مما نحتاج فيه إلى هذا البحث، وهذا الغموض هو أن المتبادر إلى الأذهان دائما أن الإمامة هي: عبارة عن (الخلافة) المتمثلة بولاية الأمر وقيادة التجربة الإسلامية والحكم الإسلامي، ومن ثم فقد يأتي هذا السؤال إذا كانت الإمامة هي عبارة عن الخلافة والولاية والحكم، فأهل البيت عليهم السلام قد حرموا من هذه الخلافة كما نعرف، باستثناء فترات
محدودة وقصيرة جدا في التاريخ الإسلامي، وهي فترة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الإمام الحسن عليه السلام وهي مدة قصيرة جدا، وإن كنا ننتظر الخلافة المطلقة لهم التي يقوم بأعبائها إمامنا وسيدنا الحجة بن الحسن (عج)، وباستثناء ذلك فإن هذه القرون العديدة التي مضت في تاريخ الإسلام وهي حوالي أربعة عشر قرنا من الزمن، وما يمكن أن نفترض من قرون أخرى تأتي حتى يظهر سيدنا الإمام الحجة (عج)،
ويتولى أهل البيت عليهم السلام هذا الدور، لم يتسلم أهل البيت (الخلافة)، فهل أن ذلك

كان تعطيلا لدورهم في الحياة الإسلامية طيلة هذه المدة الطويلة، حتى يظهر أمرهم في المستقبل؟! أو أن الإمامة ودور أهل البيت عليهم السلام هو أوسع وأشمل من قضية تولي الحكم وإدارة هذا الحكم، وأن تولي إدارة الحكم هو أحد الأدوار والأبعاد في دورهم عليهم السلام الواسع في حياة الإسلام والمسلمين؟ هذا هو السؤال الذي يشرح العنوان.

ونحن نحاول في هذا البحث أن نبين الأبعاد والأدوار الواقعية المتعددة لأهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية العامة، مضافا إلى دور الخلافة وقيادة التجربة الإسلامية وولاية الأمر.

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن هذا الموضوع هو من الأبحاث التي يمكن أن يكتب الباحثون فيها موسوعة كاملة، نسميها ب (موسوعة أهل البيت عليهم السلام)، ولدي أمل

أن أكتب ذلك، إلا أن هذا البحث بالخصوص إنما هو في إطار التخطيط النظري له، والأمل

المستقبلي أن أكتب عدة كتب، كل كتاب قد يشتمل على عدة أجزاء، لبيان هذه الأدوار،

وأحد النماذج لهذه الكتب هو كتاب (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) الذي يعبر عن دور واحد من هذه الأدوار، وقد وضعت الإطار النظري والتخطيطي لإنجازها، كما

أشرت إلى بعض موضوعاتها في هوامش الكتاب المذكور، ولكن لا أعرف هل أن الوقت يساعدني
على ذلك، ولا سيما مع ظروفي الخاصة، أو هل أن الأجل الذي ننتظره دائما يسمح لنا بذلك كي أتمكن أن أقوم بهذه المهمة أو لا؟
وقد طرح علي بعض الإخوة الأعزاء من وسطين مختلفين، أحدهما من وسط الحوزة العلمية، والآخر من وسط الجامعة، أن أقوم بشرح أفكاره على مستوى الفهرست والمنهج
العام لهذا الموضوع، من خلال مجموعة من المحاضرات، لتشكل الإطار العام لهذا البحث،
وإذا هيأ الله تعالى لنا الفرصة لكتابته تفصيلا، فنعما هو، وإلا فلعله يوجد في
الكثير من الأعزاء من الكتاب والباحثين والعلماء من تتهيأ له هذه الفرصة، إذا رأى في هذا البحث فائدة ومنفعة، وإني أعتقد أن فيه فائدة ومنفعة كبيرة جدا، ولا سيما في عصرنا الحاضر، الذي أصبح فيه مذهب أهل البيت عليهم السلام من الأسماء البارزة التي
يتطلع لها المسلمون من ناحية، والبشرية جمعاء من ناحية أخرى، ولا سيما بعد هذه المسيرة العظيمة المعطاء، مسيرة الشهداء والتضحيات، وقيام الدولة الإسلامية في هذا البلد الكريم إيران (بلد أهل البيت) على يد علماء الإسلام وعلى يد العالم الرباني الإمام الخميني قدس سره،

بحيث أصبح اسم أهل البيت عليهم السلام ومدرستهم والقواعد العلمية لهذه المدرسة المتمثلة بالحوزات العلمية رمزا من رموز هذا العصر، ومعلما من معالمه، بسبب هذا التحول الكبير الذي تحقق في الأوضاع الاجتماعية والسياسية لهذه المدرسة ولهذا الخط
الشريف.
لا أريد في هذا الحديث أن أدعي أنني سوف آتي بشئ جديد مهم في المضمون، فقد يكون
الكثير من المضامين والموضوعات التي سوف نتناولها بالبحث، من الموضوعات التي تناولها الباحثون في كتبهم وأبحاثهم، على أني لا أعلم ذلك لأني – بسبب ضيق الوقت –
لم أوفق إلى مراجعة البحوث ذات العلاقة بهذا الموضوع إلا بشكل محدود جدا، ومن ذلك
بعض بحوث الشهيد الصدر، أو ما تبقى لدي من مخزون في الذاكرة للمصادر الأصلية (القرآن الكريم والحديث الشريف (١) ولكن الجديد هو أن تنظيم هذه الأبحاث وترتيبها
ومنهجيتها وتكميلها وتطويرها في بعض الموارد هو الشئ الجديد وهو شئ مهم الذي نحتاجه في هذه المرحلة.

---

(١) وقد أعانني في تخريج النصوص من مصادرها الأصلية ولدي العزيز الفاضل السيد محمد صادق الحكيم.

تقسيم البحث
ونبدأ هذا البحث أولا: بتمهيد يتركب من خطين رئيسين، لا بد من الحديث فيهما قبل الشروع في أصل الموضوع:
أولا: الحديث عن النظرية الإسلامية في موقع أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية، وهذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي لا بد أن نتناولها في التمهيد من
أجل الدخول في هذا البحث.
ثانيا: هو تشخيص الأهداف والأدوار العامة لأهل البيت على المستوى النظري مع الإشارة إلى أدلة هذه الأهداف والأدوار من الكتاب الكريم والسنة التي وردتنا من النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام.
نظرية الإمامة
أما فيما يتعلق بالأمر الأول وهو بيان (النظرية)، يلاحظ بأن الرسالات الإلهية السابقة كانت تعتمد في إدامتها واستمرارها وبقائها على مجموعة من الأنبياء الذين يأتون بعد كل نبي من الأنبياء أولي العزم، يتحملون مسؤولية هذه الرسالة على مستوى التطبيق والتنفيذ والتفسير، ولكن الرسالة الخاتمة التي هي أعظم هذه الرسالات

وأفضلها، وأراد الله لها الاستمرار والبقاء إلى آخر الحياة البشرية، يلاحظ فيها أنها رسالة لا يوجد فيها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لما نص عليه القرآن من قوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين...) (١) وكذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وتواتر عنه صلى الله عليه وآله لدى المسلمين من قوله لعلي عليه السلام : (... أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) (٢).

إذن، فهذه الرسالة – من ناحية – هي أعظم الرسالات الإلهية، ويراد لها الاستمرار والدوام أكثر مما يراد للرسالات الإلهية الأخرى، ولكن من ناحية أخرى نجد أن هذه الرسالة لم توضع لها ضمانات للاستمرار والبقاء من خلال إرسال الأنبياء التابعين، كما وضعت ضمانات للرسالات السابقة التي جاء بها الأنبياء أولي العزم، حيث أن هؤلاء الأنبياء التابعين كانوا يقومون بمهمة إدامة زخم تلك الرسالة ومتابعة الإشراف على تطبيقها ودعوة الناس إليها، لأن عمر الرسول

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) البحار ٢١: ٢٠٨، حديث ١، مستدرك الحاكم ٣: ١٠٩، صحيح البخاري ٣: ٥٨، راجع كتاب المراجعات: ١١٩، مراجعة رقم ٢٨، وقد ذكر فيه مصادر علماء المسلمين.

– بصورة عادية – يبقى محدودا بالنسبة إلى عمر الرسالة نفسها، ولا يستمر عمره – عادة – باستمرار الرسالة نفسها، ولذلك كان الله تعالى يرسل الأنبياء التابعين من أجل أن يديموا حركة الرسالة ومسيرتها.

هذا السؤال هو الذي يفرض الحديث عن قضية ضرورة وجود الإمامة، وموقع ودور أئمة

أهل البيت عليهم السلام من الرسالة الخاتمة، حيث شاء الله تعالى أن يكون استمرار الرسالة الخاتمة عن طريق نظرية (الإمامة)، وأن تكون هذه الإمامة في أهل البيت سلام الله عليهم.

وهذا الموضوع وإن كان يحتاج إلى بحث وشرح واسع، وسوف أشير إليه في حدود الإثارة

وبعض خطوطه العامة فيما يأتي – إن شاء الله تعالى – حيث نحاول معالجة ثلاثة أسئلة رئيسية:

الأول: ما هي ضرورة وجود الإمامة في الرسالة الخاتمة.

الثاني: لماذا كان استمرار الإمامة في الرسالة الخاتمة في خصوص أهل البيت عليهم السلام؟ ولم يوضع هذا الدوام بصيغة أوسع وأشمل من هذه الأسرة الشريفة وهم (أهل البيت)، ووضعت الإمامة والاختصاص في خصوص (آل النبي محمد صلى الله عليه وآله).

الثالث: لماذا اختصت الإمامة بخصوص الأئمة الاثني عشر المعروفين من أهل البيت عليهم السلام.

وجواب كل واحد من هذه الأسئلة نحتاج فيه إلى بيان بعدين:
أحدهما: تفسير هذه الظاهرة، لأن الظواهر الإلهية والإسلامية بصورة عامة ليست ظواهر اعتباطية، أو مجرد قضايا تعبدية، وإنما هي ظواهر لا بد أن يكون وراءها حكمة ومصالح تفسر هذه الظواهر.
والبعد الآخر: هو الاستدلال على ثبوت هذه الظاهرة في الإسلام وهذا الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام، وهو بحث تناوله علمائنا في مختلف العصور، عندما كانوا يتناولون عقيدة الإمامة.
وهذا التصور النظري الخاص للاستمرار، من الامتيازات التي اختصت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام على المدارس الأخرى، لأن المدارس الأخرى تدعي أن الرسالة الإسلامية كان استمرارها بطريق أوسع، ولم يكن الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام.
هنا نحتاج – أيضا – من الناحية النظرية أن نتبين هذا الموقع الخاص لأهل البيت عليهم السلام في قضية استمرار وإدامة هذه الرسالة.
فأولا: نحتاج بالنسبة إلى النظرية أن نتبين دور الإمامة وضرورتها في الرسالة الخاتمة من أجل ملأ هذا الفراغ ببيان خصوصياته وهو فراغ ضرورة استمرار الرسالة، حيث أريد لهذه الرسالة الخاتمة أن تكون رسالة أبدية تنتهي بعمر البشرية.

وثانيا: نحتاج أن نتبين اختصاص أهل البيت عليهم السلام بهذا الدور دون غيرهم من الناس، وتفسير هذا الاختصاص، وهل أنه هو مجرد اصطفاء غيبي دون وجود تفسير له علاقة
بحركة البشرية والحياة الاجتماعية، أو أن هذا الاصطفاء له علاقة بهذه الحياة البشرية والارتباط بين الأمر الأول والثاني.
وثالثا: نحتاج أن نتبين اختصاص أهل البيت عليهم السلام بخصوص هذا العدد المحدود،
وهو الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.
هذا كله في ما يتعلق بموضوع أصل النظرية، وهو الأمر الأول الذي سوف نتناوله في فصول ثلاثة على المستوى النظري.
الأول: البحث في ضرورة (الإمامة) وموقعها في الرسالة الإسلامية.
الثاني: في اختصاص (الإمامة) بخصوص (أهل البيت عليهم السلام).
الثالث: في اختصاص أهل البيت بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت.
الأهداف والأدوار
أما فيما يتعلق بالأمر الثاني وهو الأهداف والأدوار العامة لأهل البيت عليهم السلام، بعد أن نعرف أن لأهل البيت عليهم السلام هذا الموقع الخاص.

وفي هذا البحث سوف نلاحظ أن هناك سبعة أهداف وأدوار رئيسية وأساسية، يمكن أن
نستنبطها من حديث أهل البيت عليهم السلام، عند الرجوع إلى أحاديثهم عليهم السلام عن دورهم في حياة المسلمين، وهذا البحث سوف نشرحه من خلال تسمية الأدوار، وبيان
النصوص ذات العلاقة بتشخيص هذه الأدوار أو حقيقتها:

الدور الأول: حفظ الحياة الإنسانية، لما ورد في شأن الإمامة وأهل البيت عليهم السلام بأنهم أمان لأهل الأرض.

الدور الثاني: قيادة التجربة والحكم الإسلامي وولاية الأمر.

الدور الثالث: المرجعية الدينية والفكرية للمسلمين.

الدور الرابع: المحافظة على الشريعة الإسلامية، وبقاء هذه الرسالة محفوظة ومنزهة عن التحريف والتزوير.

الدور الخامس: المحافظة على وجود الأمة الإسلامية ووحدتها وحيويتها.

الدور السادس: بناء الجماعة الصالحة، ولذلك فإن موضوع بناء الجماعة الصالحة يكون
أحد الأدوار والأهداف التي استهدفها أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية.

الدور السابع: تجسيد القدوة والأسوة في السلوك الإسلامي

الراقي، وإيجاد المثال الخارجي له.
وقد يستحق كل واحد من هذه الأدوار بحثا أو كتابا مستقلا، ولكننا في هذا الاستعراض سوف نحاول التلخيص والاقتصار على القضايا الرئيسية مع الإشارة إلى أدلتها وذكر العناوين التي يمكن أن تكون مجالا للبحث التفصيلي مع الإشارة إلى بعض المصادر التي تناولت هذه الأبحاث التفصيلية.
المواقف
وإلى جانب هذين الأمرين أو الخطين من البحث (النظرية والأدوار) يوجد بحث ثالث –
أيضا – مهم، وهو استعراض (المواقف) والإنجازات المهمة الرئيسية التي اختص أو تميز
بها كل واحد من هؤلاء الأئمة الاثني عشر إلى جانب المساهمة في الأدوار المشتركة وتحقيق الأهداف العامة، حيث يمكن تقسيم البحث في هذا الموضوع على عدد الأئمة أنفسهم، وبيان الأدوار من خلال المواقف الخاصة لهم والتي كان لها بطبيعة الحال أثر مهم في الوقت نفسه في تحقيق الأهداف العامة المشتركة.
وبعد هذا العرض، نأتي إلى معالجة الأسئلة الذين أثرناها في الأمر

الأول (النظرية).

نظرية الإمامة
الفصل الأول:
ضرورة الإمامة

السؤال الأول: لماذا كان من الضروري أن تستمر الرسالة الإسلامية من خلال (الإمامة)، مع أن هذه الرسالة هي رسالة خاتمة، ثم لماذا لم يكن هذا الاستمرار بهذه الصورة في الرسالات السابقة، بل كان من خلال النبوات التابعة؟

أما عدم الاستمرار من خلال النبوات التابعة، فلأن الاستمرار للنبوة في الرسالات السابقة كان أمرا طبيعيا، وذلك للوصول بالرسالة والانسانية معا إلى مرحلة التكامل الرسالي والإنساني، فكان من الضروري أن يأتي أنبياء تابعون للرسالة الإلهية التي يرسل الله تعالى بها نبيا من الأنبياء أولي العزم، لأن الرسالات الإلهية كانت تتعرض إلى التحريف فيها لدرجة تفقدها دورها الرسالي المطلوب من ناحية، كما أن الرسالات لم تبلغ التكامل الرسالي المفروض الذي بلغته في الرسالة الخاتمة من ناحية أخرى، والانسانية لم تبلغ مرحلة التكامل الرسالي في ثبات الأصول والمبادئ الأساسية للرسالات الإلهية في

مسيرتها من ناحية ثالثة، فنحتاج إلى هذه النبوات التابعة التي قد يندمج فيها دور النبوة والإمامة في بعض الأحيان، وقد ينفصل حسب طبيعة المرحلة والزمان، فنشاهد أنبياء دون إمامة لإبلاغ الرسالة وبيان أو كشف ما تعرضت له من تحريف أو أوصياء دون
نبوة، ليكون دورهم هو مواصلة دور النبوة السابقة المحدود.
أما في الرسالة الخاتمة وبعد فرض تكاملها الرسالي والإنساني معا، سواء على مستوى النظرية أو ثبات الأصول والمبادئ الأساسية للرسالة، فنحن لسنا بحاجة إلى أنبياء تابعين، ولذا انقطعت النبوة (١).
وأما لماذا كان هذا الاستمرار من خلال خط الإمامة في الرسالة الخاتمة؟
فقد أشرنا في حديثنا إلى أنه قد يبدو لأول وهلة أن الحاجة في الرسالة الخاتمة إلى الاستمرار والبقاء – بسبب أهميتها وجلالتها وسموها وامتيازاتها على الرسالات السابقة – أكثر من الحاجة بالنسبة

---

(١) عالجنا هذا الموضوع في بحثنا حول خصائص الرسالة الإسلامية (العالمية، الخاتمية، الخلود)، ولمزيد من التوضيح يمكن مراجعة البحث المذكور.

إلى الرسالات السابقة، لأنها الرسالة الأهم والأعظم، فكيف لا تحتاج إلى من يتابعها، مع أن الرسالات الأقل احتاجت إلى مثل هذه المتابعة؟

والسبب في ذلك هو أن هذه الرسالة، وإن أصبحت من حيث مضمونها ومحتواها الرسالي

رسالة خاتمة وكاملة، ولا تحتاج عندئذ إلى متابعة على مستوى (الأنبياء) لبيان أصل الرسالة وثبت الأصول، لأن النبي صلى الله عليه وآله أكملها في بلاغها وعرضها على الناس، وقد صرح القرآن الكريم بذلك: (... اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الأسلم دينا...) (١)

إذن، فالرسالة الخاتمة من هذه الناحية لا تحتاج إلى إكمال على مستوى البلاغ والتبشير والانذار الذي يتحمله الأنبياء عادة، لمعالجة الانحرافات وتثبيت

الأصول والأسس، نعم قد تحتاج إلى إكمال بيان بعض التفاصيل، ولكن ذلك وحده لا يحتاج إلى الإمامة ودورها الكبير في النظرية الإسلامية.

كما شاء الله سبحانه وتعالى أن تختص الرسالة الإسلامية من بين الرسالات الأخرى بضمانات ووسائل الحفظ من الضياع والتحريف

---

(١) المائدة: ٣.

المطلق في مضمونها، وذلك من خلال عدة عناصر أساسية ومهمة، يأتي في مقدمتها القرآن
الكريم، والمحافظة عليه من التحريف والزيادة والنقصان، ببركة قيام النبي صلى الله عليه وآله بتدوينه ووجود العدد الكبير من الصحابة الأفذاذ الصالحين وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام، الذين تمكنوا من حفظ القرآن في الصدور، وغير ذلك من الأسباب الغيبية أو المادية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون) (١) ولا شك أن لوجود أهل البيت عليهم السلام دور مهم وعنصر أساس – أيضا – في ذلك (٢).
وهي بذلك لم تعد بحاجة إلى نبوات تابعة، ولكن مع ذلك كله، تبقى الرسالة الإسلامية الخاتمة بحاجة إلى وجود متابعة لها على مستويات أخرى، ومن أجل ذلك كان وجود الإمامة
واستمرار الرسالة من خلالها ضرورة لازمة.
وبصدد توضيح ذلك، أشير إلى ثلاث نقاط رئيسية، لا بد من الاهتمام بها ومتابعتها وبحثها بدقة:

---

(١) الحجر: ٩، عالجنا هذا الموضوع في بحث ثبوت النص القرآني من كتابنا علوم القرآن: ٩٩.
(٢) أشرنا إلى هذا الدور في بحث التفسير عند أهل البيت عليهم السلام الذي نشر جانب منه في كتابنا علوم القرآن: ٣٠٧.

الإمامة والاختلاف في العبادة

النقطة الأولى: أن الأنبياء عندما يرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى عباده كانوا يقومون بمهمات ذات بعدين رئيسيين:

أحدهما: البلاغ والانذار لهؤلاء الناس فيبينوا الرسالة بتفاصيلها المطلوبة، وهذا ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله في الرسالة الخاتمة، وقام به الأنبياء السابقون - أيضا - في الرسالات الأخرى.

ثانيهما: مواجهة ظاهرة الاختلاف في المجتمع الإنساني والعمل على حله، لأن الله تعالى يقول: (... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين
وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما
اختلفوا فيه...) (١)

وتدخل مهمة التزكية والتطهير ومهمة التعليم، كنتيجة لهاتين المهمتين الرئيسيتين.

إذن، قضية الاختلاف هي قضية مهمة جدا يواجهها الأنبياء في عملهم وحركتهم، والاختلاف هنا هو اختلاف في المثل العليا التي يتخذها هؤلاء الناس للعبادة وفهمهم للحياة والكون وحركتهم

---

(١) البقرة: ٢١٣.

الاجتماعية، حيث يتخذ هؤلاء الناس لهم الآلهة المصطنعة – والمثل المحدودة، أو التكرارية (١) والأسماء المزيفة المستلهمة من القوى الموجودة في هذا الكون، أو الشهوات والأهواء والميول، أو الطغاة والمستكبرين والمترفين، أو من تقليد الآباء والأجداد – يعبدونها من دون الله.

ولما كان عمر الرسول محدودا – عادة – لا يستوعب الزمان الكافي لحل هذا النوع من

الاختلاف خارجيا، بحيث يمكنه من إزاحة جميع العوائق والموانع التي تقوم أمام الرسالة في حركتها الاجتماعية والانسانية، تصبح الرسالة بحاجة إلى قيادة معصومة للحركة الاجتماعية وإدامة العمل لحل هذا النوع من الاختلاف، وهذه الحاجة ثابتة في كل الرسالات الإلهية، فكيف إذا كانت الرسالة رسالة خاتمة طويلة، يراد لها أن تعم الأرض كلها، وتزيل جميع الآلهة المصطنعة، والأمثلة التي يبتدعها الإنسان وتنتصب في وسط الطريق.

لذا كانت الحاجة قائمة لوجود القائد وهو الإنسان الكامل الذي نعبر عنه بالإمام، ليقود معركة تحرير الإنسان من كل هذه الآلهة

---

(١) اصطلاح استخدمه الشهيد الصدر قدس سره في بحثه حول التفسير الموضوعي، عندما طرح فكرة المثل الأعلى في العبادة: ١٨٤.

والقيود، وتحقيق العبادة المطلقة لله تعالى، دون غيره من الآلهة، وهو المثل الأعلى للحق، لأن معركة التحرير هذه تحتاج إلى شخص يتصف بالاستيعاب الكامل والرؤية الواضحة للرسالة من ناحية، والشعور العالي بالمسؤولية أمام الله تعالى في إدامة المعركة والإدارة القوية في إدارة المعركة التي تعتمد على جهاد النفس من ناحية أخرى.

وهذا السبب هو ما أشار إليه الشهيد الصدر قدس سره في حديثه حول ضرورة الإمامة بعد

الرسول، وقد أعطى الإمامة مضمونا شاملا، يتحد مع النبوة أحيانا، عندما تكون الحاجة إلى النبي والقائد معا، ويفترق عنها أحيانا أخرى، عندما تكون الحاجة إلى القائد وحده، ولكنه على أي يرتبط بهذه المهمة الخاصة وهي قيادة المعركة، وهو ما عبر

عنه الشهيد الصدر قدس سره بقيادة المعركة التي يواجهها الأنبياء في المجتمعات الإنسانية، لإزالة كل الأمثلة المزيفة والآلهة المصطنعة الذي يخترعها الإنسان ويبتدعها، سواء كانت هذه الأمثلة المصطنعة والآلهة المزيفة عبارة عن طواغيت يحكمون

بين الناس أو كانت شهوات وهوى يتحكم في مسيرة هؤلاء الناس، أو كانت أفكار منحرفة

يختلقها الإنسان ويبتكرها، فيجعلها مثالا له يقتدي ويهتدي به، فيتحول إلى

إله يعبده من دون الله، كما قال تعالى: (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطن...) (١) فهي معركة إزاحة هذه الآلهة المصطنعة عن طريق الهدى والصلاح والخير الذي يقوده الأنبياء (٢) وهذه المعركة عمرها أطول من عمر النبي، فإن عمر الرسول مهما طال زمانه، لا يستوعب زمان الاختلاف، لأن الله تعالى جعل قضية الاختلاف بين الناس سنة من السنن الطبيعية التي تحكم حركة التاريخ في كل الأدوار، فقضية الاختلاف، قضية قائمة لا يختلف فيها زمان عن زمان، ولا تنتهي هذه القضية إلا بنهاية حركة البشرية، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك - أيضا - في قوله تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة وحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم...) (٣)

إذن، فالمعركة ضد الاختلاف تحتاج إلى من يقودها، وزمنها أطول من زمن النبي، ولو كانت هذه المعركة تنتهي بزمن النبي كان يمكن

---

(١) النجم: ٢٣.
(٢) التفسير الموضوعي: ١٩٥ - ١٩٦.
(٣) هود: ١١٨ - ١١٩.

للنبي أن ينهي المعركة ولا نحتاج إلى من يقودها من بعده، ولكنه لما كانت هذه القضية
هي سنة تحكم حركة التاريخ، فنحتاج إلى من يقود هذه المعركة، معركة إزاحة الآلهة المزيفة والمصطنعة أمام الحركة التكاملية للإنسان.
وقيادة هذه المعركة تارة تكون من قبل نبي يقوم بدور الإمام – أيضا – كما في كثير من الأنبياء السابقين التابعين، وأخرى تكون من قبل الإمام الذي لا يتصف بعنوان النبوة لعدم الحاجة إليها، ولما كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، الكاملة، المحفوظة، ونبوة محمد صلى الله عليه وآله لا نبوة بعدها، اقتضى أن يكون الدور للإمامة التي لا تتصف بالنبوة.
والشواهد على هذه الحقيقة عديدة وليست مجرد الآيات القرآنية التي أشرت إليها، وإن كانت تكفي هذه الآيات أن تكون شاهدا ودليلا عليها، ولكن الواقع التاريخي شاهد – أيضا – على هذه الحقيقة، فإن ظاهرة الاختلاف ظاهرة قائمة وثابتة في التاريخ الإنساني – كما ذكرنا – كما أنها ظاهرة ثابتة في التاريخ الإسلامي في زمن النبي وبعده، ولا يمكن لأحد من الناس أن ينكرها أو يخفيها، وهذه القضية ليست مجرد قضية
نظرية، وإنما هي قضية ذات واقع قائم في المجتمع

الإنساني والإسلامي كله، وهذا هو ما نواجهه – أيضا – في هذا العصر والزمان.

الإمامة والاختلاف في التأويل

النقطة الثانية: إن الرسالات الإلهية تواجه – عادة مع غض النظر عن الاختلاف الأول الذي ذكرناه في النقطة الأولى – بعد ثبوتها ورسوخ أقدامها نوعا آخر من الاختلاف وهو الاختلاف في تفسير هذه الرسالة، وفهم مداليلها وتأويلها وتجسيد المصاديق الخارجية فيها، وهذا نوع آخر من الاختلاف، أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة التي تحدث فيها عن أهل الكتاب وما اختلفوا فيه من تأويل الكتاب، منها قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتب لفي شقاق بعيد) (١)

---

(١) البقرة: ١٧٤ – ١٧٦.

وقوله تعالى: (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتب والحكم
والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
العلمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا
إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك
يقضي بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون) (١)
كما أن بعض الآيات القرآنية أشارت - أيضا - إلى كلا النوعين من الاختلاف، كما في
قوله تعالى: (كان الناس أمة وحدة فبعث الله النبيين
مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم
بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين
أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى
الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه
والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (٢)
وهذا النوع من الاختلاف هو معركة أخرى تخوضها الرسالات الإلهية - عادة - وهو غير
الاختلاف الناشئ من تحريف أصل الرسالة بمعنى ضياع بعض معالمها المهمة، والذي حفظ
في الرسالة الإسلامية، فهو تحريف في التطبيق والفهم، ويحتاج - أيضا - إلى قيادة

---

(١) الجاثية: ١٦ - ١٧.
(٢) البقرة: ٢١٣.

معصومة في فهمها الكامل للرسالة وفهم مضمونها وآفاقها، وفي معرفتها لتفاصيلها التي لا يمكن – عادة – للنبي أن يبينها لجميع الناس – كما تدل على ذلك شواهد كثيرة (١) –
وكذلك معصومة في حرصها على الرسالة وقيمها ومثلها ومبادئها وصبرها واستقامتها في
هذا الطريق، وتحملها لمسؤوليتها وأعبائها.
وقد كان يتم ذلك – أيضا – عن طريق النبوات التابعة من الرسالات الإلهية الأخرى، أو الأوصياء الذين كانوا يتحملون هذا الدور من الإمامة – أيضا – وأما في الرسالة الخاتمة فقد تمحض هذا الأمر في دور الإمامة.
وهذا النوع من الاختلاف هو الذي يفسر لنا ما ورد في أحاديث عديدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عندما كان يتحدث مع علي عليه السلام، وغيره عن مستقبل الأيام في التاريخ الإسلامي وتطورات الأحداث فيه، حيث كان هناك معركتان إحداهما على التنزيل كان يقودها رسول الله صلى الله عليه وآله في مواجهة المشركين وأهل الكتاب،
ومعركة أخرى هي معركة على

---

(١) ذكرنا هذه الحقيقة مع بعض شواهدها في بحثنا عن التفسير في زمن النبي (علوم القرآن) وفي بحثنا عن التفسير عند أهل البيت، وسوف نتناول هذا الموضوع مرة أخرى بصورة تفصيلية في البحث عن المرجعية الفكرية لأهل البيت عليهم السلام.

التأويل الذي كان يخبر الرسول عن دور الإمام علي عليه السلام في قيادتها، فقد روى سعيد بن المسيب، عن سعيد بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، تقضي ديني وتنجز عدتي وتقاتل بعدي
على التأويل كما قاتلت على التنزيل، يا علي حبك إيمان وبغضك نفاق ولقد نبأني اللطيف الخبير أنه يخرج من صلب الحسين تسعة من الأئمة، معصومون مطهرون، ومنهم
مهدي هذه الأمة، الذي يقوم بالدين في آخر الزمان كما قمت به في أوله (١)
إذن، فهذه المعركة هي قضية حقيقية قائمة في التاريخ الرسالي والتاريخ الإسلامي وقد ذكرها القرآن الكريم على مستوى تاريخ الأنبياء - أيضا - وأكدتها الأحداث التي جرت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كحقيقة من الحقائق التاريخية، أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله في مستقبل الأيام.

---

(١) البحار ٣٦: ٣٣١، حديث ١٩٠، وقد ورد مضمون القتال على التأويل والقتال على التنزيل في عدد من النصوص التي رواها الفريقان.

النقطة الثالثة: إن الرسالة الخاتمة امتازت بامتيازات عديدة لم تشبهها الرسالات الإلهية السابقة وكان من جملة الامتيازات في الرسالة الخاتمة – كما ذكرنا سابقا – هو أن الله تعالى شاء أن يحفظ هذه الرسالة بمضمونها الرسالي بصورة كاملة من خلال
القرآن الكريم، ولذا لم تحتاج إلى النبوات التابعة، أما الرسالات السماوية الأخرى فقد تعرضت للتحريف والضياع، لأسباب يطول الحديث فيها (١)
وكان أحد الامتيازات المهمة – أيضا – هو أنها تمكنت من أن تقيم الدولة الإسلامية (الكيان السياسي الإسلامي) في المجتمع الإنساني في عصر صاحب الرسالة وبعده.
فقد دعت الرسالات السابقة إلى إقامة الحق والعدل بين الناس وإلى تحكيم ما أنزل الله تعالى بين الناس، فقد قال القرآن الكريم في سياق الحديث عن نزول التوراة:
(... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)،
وقال في سياق الحديث عن نزول

---

(١) لا أريد أن أتعرض هنا إلى جميع امتيازات الرسالة الخاتمة على الرسالات السابقة، وقد أشرت إلى بعض هذه الامتيازات في بحث (العالمية والخاتمية والخلود) في رسالة الإسلام، ولكن أريد أن أشير هنا إلى الامتيازات التي هي محل الشاهد في بحثنا هذا.

الإنجيل: (... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)، كما قال في سياق الحديث عن نزول القرآن الكريم: (... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) (١)

إذن، فقضية الدعوة إلى إقامة الحكم بين الناس ليست خاصة بخصوص الرسالة الإسلامية،

بل أن قضية إقامة الحكم بما أنزل الله بين الناس هي قضية ترتبط بكل الرسالات الإلهية، ولكن شاء الله تعالى في حركة وتاريخ هذه الرسالات الإلهية أن يقوم الحكم بين الناس كحالة سياسية اجتماعية خارجية، نعبر عنها بقيام الدولة الإسلامية، شاء الله تعالى أن يقوم ذلك في خصوص تاريخ الرسالة الخاتمة، دون بقية الرسالات الأخرى.

فنوح عليه السلام لم يتمكن من تحقيق قيام دولة إسلامية، ولو بمستوى الإسلام الذي جاء به نوح عليه السلام.

كما أن إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الأنبياء لم يتمكن أن يقيم هذا الكيان السياسي الإسلامي، وموسى عليه السلام شاء الله تعالى أن يقبضه إليه قبل أن يتمكن من إقامة هذا الكيان السياسي الإسلامي، بعد أن كان قد مهد

---

(١) المائدة: ٤٤ و ٤٥ و ٤٧.

له بإخراج بني إسرائيل من سلطة فرعون، وجاء بألواح التوراة، ليحقق ذلك، ولكنهم رفضوا الاستمرار في المسيرة ودخول الأرض المقدسة، لتحقيق هذه المهمة الإلهية الصعبة، فكتب الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة (١)
وكذلك الحال في النبي عيسى عليه السلام، حيث رفعه الله قبل أن يحقق هذا الهدف الإسلامي العظيم.
ولم يتمكن الحواريون من أن يقوموا بذلك - أيضا - فولدت الرهبانية والانعزال، وانحرفت المسيحية على يد بولس، عندما تحولت إلى الحكم والسلطان والقيصرية.
وشاء الله تعالى أن يكون ذلك من امتيازات نبوة محمد صلى الله عليه وآله.
إذن، فهذا من الامتيازات الخاصة التي امتازت بها الرسالة الإسلامية (٢).

---

(١) وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في سورة المائدة الآيات ٢١ - ٢٦.
(٢) هذا بحث عميق وفيه الكثير من التفاصيل، وقلت إنني أشير هنا إلى العناوين الكلية، ومن هذه التفاصيل تفسير ظاهرة قيام الدول التي أقامها بعض الأنبياء، كداود وسليمان عليهما السلام، وغيرهما من الأنبياء الذين أقاموا دولا، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك، عندما يتحدث عن تفضيل ونعم الله على بني إسرائيل بقوله تعالى: (... إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا...)، المائدة: ٢٠، فإن بعض هؤلاء الأنبياء أقاموا دولة، ولكن هذه الدولة التي أقاموها تختلف بحسب مضمونها وهويتها وخصوصياتها عن هذه الدولة الإسلامية التي أقامها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليس بحسب سعتها ودائرة وجودها وتفاصيلها، بل بحسب الهوية والمضمون - أيضا - وهذا بحث أشرت له بصورة موجزة - أيضا - في بحث (العالمية والخاتمة والخلود) كصفات للرسالة الإسلامية.

إذن، فعندما تكون من خصائص هذه الرسالة وجود هذه الدولة، فهذه الدولة تحتاج إلى قيادة تقودها، وهذه القيادة لا بد أن تكون في منذ البداية معصومة، لتتخذ الدولة صيغتها الإسلامية الكاملة في

التطبيق المتميزة عن الصيغ الأخرى، وهذا إنما يتحقق من خلال الإمامة.
لأن مثل هذه الدولة، ومثل هذه التجربة لا يمكن أن تقاد وبصورة كاملة وصحيحة، بحيث
تحقق كل الأهداف التي جاءت بها الرسالة، إلا بمثل هذه القيادة التي نعبر عنها بالإمامة.
وهنا ينفتح أمامنا باب بحث الخلافة الإلهية، فإن بحث الخلافة الذي هو من الأبحاث الكلامية المهمة التي يتناولها علماؤنا، ويستدلون فيها على تشخيص من يتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ويقوم بإدارة هذه الدولة، هذا البحث فيه بعدان:
بعد يرتبط بالجانب العقائدي وهو استمرار الرسالة في الإمامة وعصمة هذه الإمامة كعصمة الرسالة وهو ما نريد أن نشير إليه في هذه الحديث، وبعد آخر يرتبط بالجانب التاريخي والسياسي والنصوص التي وردت في ذلك، والتحولات الاجتماعية والظروف السياسية التي اقترنت بهذا الموضوع، وهذا البعد له حديث آخر غير هذا الحديث (١).

---

(١) سوف نتناوله بشئ من التفصيل، عندما نتحدث عن دور أئمة أهل البيت في قيادة الحكم الإسلامي.

إذن، فنحن عندما نتحدث عن موضوع الخلافة، وأن هذه الخلافة لا بد أن يقوم بها الإمام
المعصوم، وتكون تجسيدا واستمرارا للحكم الإلهي النبوي، عندما نتحدث عن هذا الموضوع، لا نتحدث عن أمر تاريخي ذهب مع الزمن وانتهى وقته، وإنما نتحدث عن أمر
عقائدي، يرتبط بفهمنا للإسلام وللرسالة الإسلامية، ولتكامل هذه الرسالة، وهذا قضية مهمة جدا.
إذن، فالنقطة الثالثة في ضرورة الإمامة، هي ضرورة وجود قيادة معصومة للحكم الإسلامي والكيان السياسي.
لأن هذا الكيان السياسي من أجل أن يكون قادرا على تطبيق الحق والعدل على البشرية بصورة كاملة ودقيقة، تتناسب مع الهدف الكبير لهذه الرسالة الإسلامية، لا بد له من وجود قائد معصوم لهذا الكيان السياسي الإسلامي حتى يمكن تحقيق هذا الهدف
الكبير، ولذلك نعتقد بضرورة الإمامة المعصومة من أجل تحقيق هذا الهدف.
العصمة والإمام المهدي
نحن نعتقد أنه بسبب عدم تولي الإمامة المعصومة لقيادة الحكم الإسلامي لتحقيق هذا الهدف العظيم في إقامة الحق والعدل الكامل،

شهد التاريخ الإسلامي هذا القدر الكبير من الانحراف في مجال تطبيق العدل والحق، بحيث جعل الرسالة الإسلامية كلها في موضع الشك والريب بسبب الظلم والاستبداد والطغيان الذي مارسه الحكام المسلمون في عدة قرون من الزمن، في العهود الأموية والعباسية والعثمانية، ولولا الفترة القصيرة للقيادة المعصومة لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإمام علي عليه السلام التي تمكنت أن تبين الوجه الناصع الحقيقي لطبيعة الحكم الإسلامي، لكان مواجهة هذه الشبهة واقعيا وعمليا أمرا عسيرا، ولا سيما وأن فترة الخلافة الأولى بعد رسول الله التي كانت تتسم بالاعتدال النسبي، شهدت الاضطراب والتذبذب في صيغة الحكم الإسلامي، وفي النتائج المروعة التي انتهت
إليها في خلافة الخليفة الثالث، ومن هنا كانت وجود فكرة الإمام المنتظر (عج) الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا، فكرة مطروحة منذ البداية في الرسالة الإسلامية وهي مما يجمع عليها المسلمون، وذلك من أجل تحقيق هذا الهدف الكبير في الحكم والانتشار وفي الكيف والتطبيق الكامل للحكم الشرعي، وعندئذ تكون
كل المساعي التي بذلها أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم بعيدون عن قيادة الحكم الإسلامي والتجربة الإسلامية، وكذلك كل المساعي

الأخرى التي بذلها ويبذلها العلماء المجاهدون والمؤمنون في طول التاريخ الإسلامي، كل هذه المحاولات إنما هي تمهيد لظهور هذه الدولة المباركة الكريمة التي تملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا.

نظرية الإمامة
الفصل الثاني:
الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

أما جواب السؤال الثاني: وهو أنه إذا سلمنا بضرورة استمرار خط الإمامة بعد الرسالة الخاتمة، فلماذا كان خط الإمامة مستمرا في خصوص أهل البيت عليهم السلام، وهذه الأسرة الشريفة الطيبة، هل أن القضية مجرد قضية تشريف وتكريم لرسول الله صلى
الله عليه وآله، فجعلت الإمامة في أهله وأسرته، أو أن هناك شيئا أهم وأعظم وأوسع من ذلك بالنسبة لاستمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام؟
كان يمكن أن يفترض نظريا أن يكون الأئمة المعصومون في أسرة ووسط آخر غير هذا البيت الشريف، كما عرفنا في التاريخ الإنساني والرسالي وجود أسر وجماعات أخرى كان
فيها أئمة معصومون، كما هو الحال في إسحاق وإسماعيل من ذرية إبراهيم عليه السلام،
وكما في الأنبياء من ذرية يعقوب الذي يسمى في القرآن الكريم بإسرائيل، فإن هؤلاء كانوا يتصفون بالعصمة - أيضا - وكان بعضهم له دور الإمامة في حركته الرسالية، ومن
ثم فلماذا كان اختصاص الإمامة في خصوص

أهل البيت عليهم السلام، فهل أن القضية – كما أشرنا – هي قضية تكريم وتشريف لرسول
الله صلى الله عليه وآله باعتباره الرسول الخاتم، فأراد الله تعالى أن يكرمه
ويشرفه بذلك، ويجعل ذلك نعمة منه سبحانه وتعالى على هذا العبد الصالح الذي أفنى كل
وجوده في سبيل الإسلام وفي سبيل الله وفي سبيل تكامل مسيرة الإنسان، أو أن تكون
القضية تعويض إلهي عن الجهود التي بذلها في سبيل الله والحق والعدل والانسانية،
كما قد يفهم ذلك من قوله تعالى: (... قل لا أسئلكم عليه أجرا
إلا المودة في القربى...) (١) فيكون أجرا له على ذلك، وإنما اختص هذا
الأجر به دون بقية الأنبياء الذين أكد القرآن على أنهم لا يبغون أجرا على
رسالتهم إلا الإيمان بالله تعالى، لأن النبي صلى الله عليه وآله قد بذل جهدا لم
يبذل مثله أحد من الأنبياء، وقد تحمل من الآلام والمحن ما لم يتحمله أحد قبله ولا
بعده... أو أن هناك شيئا آخر غير موضوع التكريم والتشريف؟
هنا يمكن أن نشير بهذا الصدد إلى عدة نقاط – أيضا – مع قطع النظر عن الروايات التي
وردت في هذا الموضوع والاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام من خلال النصوص
الشريفة التي دلت على

---

(١) الشورى: ٢٣.

إمامتهم (١).

التكريم والتشريف

النقطة الأولى: هي قضية التكريم والتشريف التي أشرنا إليها في طرح السؤال، حيث نلاحظ من خلال القرآن الكريم ومسيرة التاريخ الرسالي لكل الرسالات الإلهية أن الله تعالى شاء بلطفه وكرمه وفضله على أنبيائه بأن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة يقومون بهذا الواجب الإلهي تكريما لهم ونعمة منه تعالى عليهم، وكان هذا التكريم في الوقت نفسه رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء أنفسهم، تعبر عن حالة فطرية في الإنسان الكامل هي الاتجاه والرغبة إلى البقاء والاستمرار من خلال ذريته، وقد أكد هذه الحقيقة الفطرية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في عدة مواضع (٢)

---

(١) هذا البحث له محله الخاص، وهو بحث كلامي عقائدي له أساليبه وأدلته وبراهينه الخاصة به - أيضا - نتناوله في محله، وإنما نريد في هذا البحث أن نفسر هذه الظاهرة، ظاهرة تعيين الإمامة وتشخيصها في خصوص أهل البيت عليهم السلام تفسيرا ينسجم مع الأطر العامة التي جاء بها الإسلام، وأكدها القرآن الكريم، وترتبط - أيضا - بمسيرة الإنسان وتكامله.

(٢) هذا بحث قرآني واجتماعي مهم يرتبط بدراسة علاقة الإنسان بذريته، وشعوره بالبقاء والخلود من خلالها.

إذن، فهذه القضية هي قضية ترتبط بكلا الجانبين، الجانب الإلهي الخالق المنعم الكريم الجواد المتفضل على أنبيائه، المجيب لدعائهم وندائهم، وبالجانب الإنساني العبودي، المتمثل بهؤلاء الأنبياء الذين أخلصوا لله تعالى في العبودية - أيضا - فإنه من جملة إخلاصهم وإحساسهم بالعلاقة الأكيدة مع الله تعالى، إنهم كانوا يتمنون على الله ويرجون منه ويدعونه في أن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة، يضمن لهم البقاء والاستمرار في عبوديتهم لله تعالى ودورهم ومهمتهم في الحياة الإنسانية.

فهذا إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الأنبياء، عندما خاطبه الله تعالى وابتلاه بكلمات من عنده، فجعله إماما للناس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما...)، كان أول شئ يطرحه على الله تعالى ويرجوه منه، عندما يحمله الله تعالى هذه المسؤولية، هو أن تكون هذه الإمامة في ذريته - أيضا - (... قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (١)

وكذلك الحال في إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يقيمان دعائم البيت (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا

---

(١) البقرة: ١٢٤.

تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، هؤلاء في البداية يطلبون
القبول من الله تعالى لهذا العمل العظيم، ثم يدعوانه تعالى أن يكونا مع ذريتهما من
المسلمين المهتدين المنيبين إليه المقبولين لديه، (ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا
مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم).
ثم لا يكتفون بأن تكون هذه الذرية ذرية مسلمة مهتدية مقبولة، بل تترقى هذه الدعوة
بأن يطلبوا أن تكون هذه الذرية ذرية تتحمل مسؤولية النبوة والرسالة – أيضا –
(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك
ويعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم إنك أنت
العزيز الحكيم) (١)
ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر ويقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم عليه
السلام) (٢) يعني كان يرى نفسه في تحمله لهذه الرسالة إن ذلك كان استجابة لدعوة
إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع القواعد في البيت.

---

(١) البقرة: ١٢٧ – ١٢٩.
(٢) البحار ١٢: ٩٢، حديث ١.

الإمامة في الذرية سنة

النقطة الثانية: إننا نلاحظ في دراستنا لتاريخ الأنبياء والمرسلين، أن هذا التكريم قد تحول إلى سنة من السنن الواضحة في التاريخ الرسالي، وذلك عندما نرجع إلى القرآن الكريم ومفاهيمه وآياته وتصوره لحركة الرسالات الإلهية والأنبياء، ومن ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجت من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العلمين * ومن آبائهم وذريتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صرط مستقيم) (١) فعندها نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن إبراهيم عليه السلام وكيف جعل الله تعالى في ذريته النبوة، ويذكر مجموعة من أسماء الأنبياء من ذريته بدون ترتيب زماني، ثم يشير إلى أمرين يمكن أن نفهم منهما هذه السنة التاريخية:

---

(١) الأنعام: ٨٣ - ٨٧.

أحدهما: الانتقال بالإشارة إلى نوح عليه السلام (ونوحا هدينا من قبل) ليربط هذا التاريخ بما قبل إبراهيم عليه السلام.
ثانيهما: تعميم النعمة على الآباء والذريات والإخوان، مما يفهم منه القانون العام (ومن آبائهم وذريتهم وإخوانهم).
وهكذا ما ورد في سورة مريم، عندما تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من الأنبياء: إبراهيم وبعض ذريته وإدريس قبل إبراهيم ثم يختم الحديث بالقانون العام (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم
وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل
وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن
خروا سجدا وبكيا) (١)
والشئ نفسه - أيضا - يذكره القرآن الكريم في سورة الحديد، ولكن على نحو الإشارة، وذلك عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث جعل في ذريتهما
النبوة، قال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في
ذريتهما النبوة والكتب فمنهم مهتد وكثير منهم
فاسقون) (٢)

---

(١) الآية: ٥٨.
(٢) الآية: ٢٦.

وموارد أخرى لا يسع المجال لتفصيلها.
إذا فهذه من السنن التي كانت تحكم مسيرة الرسالات الإلهية، فلا نرى غرابة في أن هذه السنة تجري – أيضا – في هذه الرسالة الخاتمة، بل هي امتداد لسنة إلهية، شاء الله أن يجعلها حاكمة على مسيرة الأنبياء والمرسلين منذ بداية الرسالات الإلهية وإلى نهايتها.
وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإمامة بدأت من نوح عليه السلام – كما يذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي قدس سره وشهيدنا الصدر قدس سره – فقد نرى أن التأكيد في القرآن
الكريم على نوح وإبراهيم عليهما السلام، وجعل النبوة في ذريتهما، إنما هو إشارة إلى قضية الإمامة واستمرارها في ذرية هذين النبيين، ولا سيما أن النبي صلى الله عليه وآله هو – أيضا – من ذرية إبراهيم عليه السلام، حيث أنه ينتمي إلى إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ونبينا هو دعوة إبراهيم عليه السلام، وبذلك تصبح القضية مرتبطة تماما بهذه السلسلة المباركة للأنبياء من ناحية، وهذه السنة التي كتبها الله تعالى في الرسالات الإلهية، وهي سنة التكريم والتشريف لهم، والنعمة الإلهية عليهم.
النقطة الثالثة: التي يمكن أن يشار إليها بهذا الصدد وهي أن قضية التشخيص في أهل البيت عليهم السلام، ليست مجرد عملية تكريم

حكمة الإمامة في الذرية

وتشريف وفضل ونعمة أنعم بها الله تعالى على أنبياءه، بل أن وراء ذلك أمورا أخرى، يمكن أن نلاحظها عندما نريد أن ندرس هذه الظاهرة؟ وهي أمور ذات أبعاد: غيبية، وتاريخية، ورسالية، وإنسانية.

وهذه الأبعاد التي يمكن أن نلاحظها من خلال دراستنا للقرآن الكريم ومراجعتنا ومطالعتنا للرسالة الإسلامية قد تفسر النقطتين السابقتين، ببيان الحكمة في هذا التكريم الإلهي وهذا الاتجاه الفطري في الإنسان الذي تحول إلى سنة في مسيرة الأنبياء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

البعد الغيبي

أما ما يتعلق بموضوع البعد الغيبي، فهنا نلاحظ أن الله تعالى خلق الإنسان بصورة وحقيقة ميزه فيها على بقية المخلوقات، وجاء التعبير عن ذلك بالنفخ فيه من روح الله، قال تعالى: (ثم سوه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع

والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) (١) فالانسان ليس

موجودا ماديا متمحضا في الجانب المادي فقط، وإنما فيه عنصر غيبي، وهذا العنصر الغيبي امتياز، شاء

---

(١) السجدة: ٩.

الله تعالى أن يتعامل معه – أيضا – من خلال الغيب، بمعنى أن هناك الكثير من الأسرار في حركة الإنسان وحركة التاريخ الإنساني ترتبط بالغيب، ولم يشأ الله تعالى أن يكشف هذه الأسرار للإنسان في هذا العالم، ولكن قد يكون لهذه الأسرار أثر في تكامل حركة الإنسان في حياته الدنيوية التي لها ارتباط – أيضا – بالغيب في هذا العالم المشهود، وكذلك التكامل في حياته الأخروية، لأن الحياة المادية الدنيوية لهذا الإنسان هي حياة محدودة، والحياة الحقيقية – كما يعبر القرآن الكريم – إنما هي الحياة الآخرة، (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) (١)

وهي الحياة الممتدة الطويلة الأبدية الخالدة، وهذه الحياة الحقيقية هي حياة غيبية. فهناك الكثير من الأسرار ذات العلاقة بالإنسان، وحياة هذا الإنسان لم تكشف لهذا الإنسان، ولها تأثير في حياته في العالم الآخرة، بل ومن خلال حركة الإنسان – أيضا – في هذه الدنيا.

وهذا الأمر لا بد أن نؤكد عليه دائما في تفسير الكثير من الظواهر الإنسانية، فإنه لا يمكن أن نفسر الظواهر الإنسانية بالتفسيرات المادية

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

فقط، لوجود الجانب الغيبي في الإنسان، ومن ثم فلا بد أن نفترض وجود جانب من التفسير
يرتبط بهذا الغيب.
وهذا الأمر ليس مجرد فرضية واحتمال عقلي، وإنما يمكن أن نجد له شواهد من القرآن
الكريم – أيضا – فقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب الغيبي في الإنسان وحركته التكاملية – كما ذكرنا – ومن ثم فيمكن أن نفترض في أهل البيت عليهم السلام – كما
ورد في النصوص والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام –
وجود أسرار غيبية ترتبط بجعل الإمامة بأهل البيت عليهم السلام، لها تأثير في حركة الإنسان وتكامل هذه الحركة.
أما الشواهد القرآنية التي تتحدث عن ارتباط الحركة التكاملية للإنسان بالغيب، فهو ما نلاحظه في مجموعة من المؤشرات:
الأول: ما ذكرناه من أن الله تعالى خص الإنسان من دون جميع الكائنات بهذا الوصف الخاص وهو أنه نفخ فيه من روحه.
إذن، فهذا الإنسان موجود ومخلوق يختلف عن بقية الكائنات التي لم توصف بمثل هذا الوصف، وترتبط بالله تعالى هذا الربط في جانب الخلقة.
الثاني: ما يشير إليه القرآن الكريم في مجال خلق الإنسان من أن الله تعالى عندما خلق الإنسان، أخذ عليه عهودا ومواثيق في عالم

الغيب، وليس في عالم الشهود والعالم المادي، كما يبدو ذلك من القرآن الكريم، قال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا
أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين) (١) يعني أن
الله تعالى انتزع من ظهور هؤلاء الناس ذريات، ثم بعد ذلك أشهدهم على حقيقة من الحقائق الرئيسية في الكون والحياة وهي (الربوبية).
وهذه الشهادة، لا ندركها الآن كأفراد نعيش الحالة المادية، فلا ندرك ونتذكر هذا الجانب من الشهادة والعهد والميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم في ذرياتهم، وشهدوا واعترفوا بذلك، وأنه سوف يحاسبهم الله تعالى في يوم القيامة – أيضا – على هذه الشهادة، لئلا يقول الإنسان في يوم القيامة إني كنت غافلا عن ذلك، فتكون الحجة لله.
نحن الآن لا ندرك ذلك بصورة مشهودة، فهو أمر غيبي في خلق الإنسان، نعم قد ندرك بفطرتنا وبوجداننا هذه الحقيقة المعبرة عن هذا الجانب الغيبي وهذا الاعتراف بالحقيقة الإلهية، عندما تكون

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

الفطرة سليمة، ولكن هذا المشهد الذي يشير إليه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة لا نحس به في حالتنا المادية – وإن كنا ندرك الحقيقة في وجداننا وفطرتنا، من خلال إيماننا بالله تعالى والاعتراف بالربوبية له تعالى – وإنما هو مشهد غيبي يتحدث عنه القرآن الكريم في أصل خلق الإنسان، ومن ثم فهناك عنصر غيبي يتحكم في هذا الجانب.

الثالث: والذي يمكن أن نستنبطه من القرآن الكريم – أيضا – هو حديث القرآن الكريم الواسع والكثير، الذي يمتد في عدد كبير من الآيات والمناسبات والآفاق حول (الاصطفاء) و (الاجتباء) في حركة التاريخ.

القرآن الكريم في آيات كثيرة ومنها قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العلمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) (١) يتحدث عن ظاهرة الاصطفاء كظاهرة غيبية، وقضية من القضايا الإلهية الغيبية التي لا تخضع للتفسيرات المادية سارية – أيضا – في

---

(١) آل عمران: ٣٣ – ٣٤، وهناك آيات عديدة، يمكن أن يجدها الباحث في مادة الاصطفاء والاجتباء وغيرها، في المعجم المفهرس.

حركة التاريخ، اصطفى الله تعالى آدم اصطفاءا خاصا، واصطفى نوحا، ثم اصطفى إبراهيم وآل إبراهيم، ثم اصطفى عمران وآل عمران، وكذلك أكد القرآن الكريم أن هذا
الاصطفاء ليس أمرا واقفا على هذه الأسماء وهذه الجماعات، وإنما هي قضية ذات امتداد في الذرية، ذرية بعضها من بعض، يعني حركة تاريخية تتحرك في التاريخ الإنساني، يمكن أن نسميها حركة الاصطفاء، وكذلك قد تكون حركة في الأسرة أو في
الجماعة والأمة.
إذن، فلماذا لا يمكن أن نفترض وجود هذه الحركة وهذا العامل الغيبي في اصطفاء الله تعالى لآل محمد صلى الله عليه وآله، وهو - أيضا - ما يشير إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: (... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
البيت ويطهركم تطهيرا) (١) ويتم تأكيد ذلك - أيضا - في آية
المباهلة وغيرها.
إذن، فيمكن أن يكون هذا سرا من الأسرار الإلهية الغيبية التي لها دلالات معروفة - كما سوف نشير إلى بعضها - ولكن لها - أيضا - دلالات وآثار في حركة التاريخ، وتكامل الإنسان الدنيوي لا نعرفها في فهمنا المادي المحدود لحركة التاريخ، ويكون لها - أيضا - أبعاد في

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

مستقبل حياة الإنسان الأخروية.
البعد التاريخي
البعد الثاني: البعد التاريخي، وقد أشار الشهيد الصدر قدس سره – في ما كتبه حول خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء – إلى هذا البعد التاريخي، إذ يذكر إننا نلاحظ في تاريخ الأنبياء والرسالات الإلهية أن الله تعالى اختار الأوصياء والقادة – كما يعبر الشهيد الصدر قدس سره – من أولئك الأقربين للأنبياء من أقاربهم أو ذرياتهم، وهذا نص كلامه: (في تاريخ العمل الرباني على الأرض نلاحظ أن الوصاية كانت تعطى غالبا لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطا نسبيا أو لذريته (١)
وهذه الظاهرة لم تتفق في أوصياء النبي محمد صلى الله عليه وآله فحسب، وإنما هي ظاهرة تاريخية اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل ويشير الشهيد الصدر قدس سره كشاهد
على هذه الحقيقة إلى الآيات القرآنية، كقوله تعالى:

---

(١) الإسلام يقو الحياة / خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء: ١٦٦، كما في لوط عليه السلام الذي كان يرتبط بإبراهيم، أو في يوشع الذي كان يرتبط بموسى، أو يرتبطون به وبذريته، كما هو الحال في إسحاق وإسماعيل ويعقوب وذرية يعقوب التي أشرنا إليها.

(ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتب...) (١) وكذلك قوله تعالى: في الآيات السابقة ٣٨ – ٧٨ من سورة الأنعام.

إذن، فهذه ظاهرة تاريخية، ومن ثم فقد طبقت – أيضا – على رسالة النبي صلى الله عليه وآله، باعتبار أن الرسالة الخاتمة وإن كانت هي رسالة كاملة وبكمالها تتميز على الرسالات السابقة، ولكن هذه الرسالة الخاتمة هي في الحقيقة امتداد لتلك الرسالات الإلهية، والنبي صلى الله عليه وآله جاء من أجل أن يصدق تلك الرسالات، ثم يهيمن عليها، وقد ورد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد ذلك، وأن

ما تشهده هذه الرسالة الخاتمة يتطابق تماما مع ما شهدته الرسالات السابقة حتى جاء التعبير في مقام التطبيق الكامل قوله صلى الله عليه وآله: (لتركبن سنة من كانت قبلكم حذو النعل بالنعل...) (٢)

---

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) البحار ٢٨: ٨، حديث ١١، عن تفسير القمي، وجاء هذا الحديث في كتب الفرقين إما بلفظه أو بمضمونه، مثل مجمع البيان ٥: ٤٩، وكمال الدين: ٥٧٦، طبعة مكتبة الصدوق، وصحيح البخاري: باب ٥٠ من كتاب الأنبياء، وصحيح مسلم الحديث ٦ من كتاب العلم، سنن بن ماجة باب ١٧، من كتاب الفتن... الخ.

إذن، فإذا كانت هذه الظاهرة هي ظاهرة تاريخية في الرسالات الإلهية، وهو أن تكون الوصاية في أقرباء النبي القائد، فلماذا تختلف الرسالة الإسلامية – بعد فرض ضرورة الإمامة واستمرارها – عن هذه الظاهرة التاريخية التي هي موجودة في كل الرسالات الإلهية؟!

ولكن هذه الظاهرة التاريخية تحتاج إلى تفسير تاريخي، ولعل ذلك – والله العالم – لأحد أمرين:

الجذر التاريخي ودوره

الأمر الأول: أن الوصي والإمام عندما يكون له هذا الجذر التاريخي والارتباط النسبي بالرسالة، يكون إحساسه بالانتماء إليها وشعوره بالمسؤولية تجاهها، متجذرا بدرجة عالية جدا، وذلك حينما يرى في نفسه فرعا من شجرة طيبة أصيلة، تمتد في جذورها الرسالية عبر القرون في التاريخ الرسالي والإنساني، وتمده بالعزم والإرادة والصبر والصمود والقدرة على تحمل المحن والآلام والشدائد والانتصارات والتقدم والبركة الإلهية التي شهدتها هذه الشجرة الطيبة في تاريخها.

ويؤكد هذا التفسير عدة مؤشرات، يمكن أن نلاحظها في القرآن

الكريم:
الأول: تأكيد القرآن الكريم على الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية، مع أن الرسالة الإسلامية هي أفضل الرسالات الإلهية، وهي الرسالة المهيمنة عليها - كما ذكرنا - وهي الرسالة الخاتمة، ورسولها أفضل الأنبياء على الإطلاق، ومع ذلك كله كان القرآن الكريم يؤكد على هذا الجذر التاريخي والانتماء للأنبياء السابقين، ولا سيما إبراهيم عليه السلام الذي ينسب إليه القرآن الكريم الإسلام في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت
لرب العلمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يبني
إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم
مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال
لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله
آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها وحدا ونحن له
مسلمون) (١)
بل أن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمى الأمة الخاتمة بهذا الاسم منذ البداية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وجهدوا في الله حق جهاده هو
اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة

---

(١) البقرة: ١٣١ - ١٣٣.

أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا
ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس
فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو
مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) (١)
الثاني: ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (ربنا وابعث فيهم
رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتب
والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٢) فقد ذكرنا
سابقا أن وجود رسول الله كان بدعوة من إبراهيم عليه السلام، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر بأنه كان دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام.
الثالث: ذكر القرآن الكريم لقصص الأنبياء وتأكيده أن أحد الأهداف لذلك هو تثبيت النبي، وطلب الصبر والثبات منه تأسيا بالأنبياء السابقين (فاصبر كما صبر
أولوا العزم من الرسل...) (٣)

---

(١) الحج: ٧٨.
(٢) البقرة: ١٢٩.
(٣) الأحقاف: ٣٥.

الأمر الثاني: أن سنة الله في التاريخ تكامل الرسالات الإلهية تدريجيا، وهي تمر عبر الرسالات المتعددة التي يكمل بعضها بعضا، كذلك الحال في تكامل الرسل والأنبياء والمرسلين، فإنها يمكن أن تكون - أيضا والله العالم - سنة تمر عبر التكامل في الجذر التاريخي للحركة الوراثية للنبي والاستمرار في الذرية وأهل البيت.

وهذه السنة هي سنة قائمة في كثير من مظاهر الطبيعة مخلوقاته عز وجل، فالشجرة الطيبة القوية المثمرة هي الشجرة ضاربة الجذور في الأرض، بخلاف الشجرة الخبيثة.

وكذلك الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة التي ضربها الله مثلا لها، فإنها هي التي تكون لها أصول وجذور.

قال تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة
كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتى
أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس
لعلهم يتذكرون)، وهذا بخلاف الكلمة الخبيثة، فهي كالشجرة الخبيثة، قال تعالى: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق
الأرض ما لها من قرار) (١)

---

(١) إبراهيم: ٢٤ - ٢٦.

البعد الرسالي
البعد الثالث: البعد الرسالي، وما يترتب على ذلك من تحقيق مصالح الرسالة وإعداد الأفراد لمهماتها ومسؤولياتها، وتحمل أعبائها الثقيلة.
فقد عرفنا في جواب السؤال الأول أن عمر الرسول – عادة – يكون أقصر من عمر الرسالة
وأعبائها ومهماتها، وهذا ما شاهدناه – أيضا – في الرسالة الإسلامية، فقد كان عمر رسول الله صلى الله عليه وآله محدودا بالنسبة إلى أعبائها ومهماتها، حيث توفي رسول الله بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من البعثة الشريفة، وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلها، والإنجازات العظيمة التي حققها في هذه المدة القصيرة، فقد بقيت أعباء الرسالة الإسلامية العالمية قائمة وموجودة إلى حد كبير في مجال التفهيم والتوضيح وفي مجال التطبيق والتنفيذ، حيث لم تتجاوز المساحة التي انتشر فيها الإسلام الجزيرة العربية، من حيث الحركة والقدرة والسيطرة، وإن كان قد خاطب رسول الله بها
الأقوام المجاورين للجزيرة، أو دخل في بعض المعارك العسكرية معهم.
بل كانت بعض الجيوب والمناطق في الجزيرة العربية نفسها لا

زالت غير مستكملة في التفاعل مع الرسالة الإسلامية، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في الحديث عمن يطلق عليهم اسم الأعراب، من أولئك الناس الذين كانوا يعيشون في
البوادي ولم يتعلموا الإسلام أو يتخلقوا بأخلاقه.
أو المؤلفة قلوبهم من ضعفاء الإيمان والاعتقاد من العرب الجاهليين الذين استسلموا للواقع السياسي والاجتماعي للهيمنة الإسلامية والنصر الإلهي، فأعلنوا دخولهم في الإسلام، وإن لم يبلغ الإيمان قلوبهم.
أو أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام، ولكن أضمروا الكفر والعصيان والتمرد، ويشير القرآن الكريم إلى هذه النماذج في كثير من الموارد، ومنها في سورة التوبة والحجرات والمنافقين.
وأفضل شاهد على هذه الحقيقة السياسية والاجتماعية هو ما شاهده المسلمون من حركة
الارتداد بعد وفاة رسول الله مباشرة في بعض مناطق الجزيرة العربية، أو مواقف بعض الأشخاص والجماعات السلبية من أهل بيته.
وإذا كان الوضع الثقافي والسياسي في الجزيرة العربية بهذه الصورة، فكيف الحال في خارجها، ومع هذا الوضع لا يمكن أن

نفترض بأن مهمات الرسالة قد انتهت بنهاية عمر الرسول صلى الله عليه وآله، وإكمال عملية البلاغ العام.
نعم يمكن أن نقول بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أنهى مهمة التبيين وإقامة الحجة ومهمة التأسيس وإقامة القواعد الاجتماعية ومهمة إيجاد الجماعة الإنسانية التي يمكنها أن تتحمل هذه الأعباء بصورة عامة.
وعندئذ، فلا بد من وجود الإمامة، لتحمل هذه الأعباء الثقيلة الأخرى بعده – كما ذكرنا سابقا – ولكن تحمل هذه الأعباء الثقيلة يحتاج إلى إعداد كامل يتناسب مع طبيعة وحجم هذه الأعباء الضخمة التي سوف يتحملها هؤلاء (الأئمة) بعد النبي صلى الله عليه وآله.
وهنا يمكن أن نقول بأن عملية الأعداد هذه التي يراد إنجازها من أجل تحمل هذه الأعباء، إنما يمكن أن تتم في داخل البيت الرسالي بصورة أفضل وأكمل من إنجازها في
خارج البيت الرسالي.
وهذا ما أشار إليه الشهيد الصدر قدس سره في قوله: (فاختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ولم يروا النور إلا في كنفه وفي إطار تربيته، وليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساسا للتوارث، بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الإطار السليم لتربية الوصي وإعداده للقيام بدوره

الرباني.
وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار، فلا أثر لها في حساب السماء قال تعالى:
(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني
جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي
الظالمين) (١)
فالذرية عادة تكون قابلة ومهيئة للإعداد الرسالي بصورة أفضل في حركة التاريخ الإنساني (٢)

---

(١) البقرة: ١٢٤، الإسلام يقود الحياة / خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء: ١٦٧.
(٢) صحيح أنه قد نشاهد - أحيانا - في داخل البيت الرسالي أشخاصا يشذون عن المسيرة وعن الارتباط بالرسالة، كما يذكر القرآن الكريم بعض النماذج.
ومن هذه النماذج ابن نوح عليه السلام، عندما يذكره القرآن الكريم كنموذج لخروج ولد لرسول عن أهداف الرسالة ومسيرتها.
ونموذج آخر يذكره القرآن الكريم، له بعد آخر من الخروج وهو أب إبراهيم - كما يعبر عنه القرآن الكريم - الذي قد يكون هدف القرآن الكريم من التأكيد عليه هو تفسير موقف (أبي لهب) من النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره قريبا لرسول الله وعمه، ومع ذلك خرج على هذه الرسالة، وهو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم بالاسم من المشركين، أو أراد به بعض أقرباء الرسول الذين كانوا بمستوى الأعمام في الحالة النسبية والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله.
ونموذج ثالث يذكره القرآن الكريم هو زوج نوح ولوط، كمثل لما يمكن أن تقفه الزوجة من صاحب الرسالة، فإنها وإن لم تكن من ذريته وبيته، ولكنها عادة ما تكون تحت تأثير عمله.

الإعداد والواقع التاريخي
وهذه الفكرة إذا أردنا أن ننظر إليها من خلال الواقع التاريخي الذي عاشته الرسالة الإسلامية، نراها – أيضا – فكرة متطابقة تماما مع هذا الواقع التاريخي، حيث نرى أن الوصي الذي كان هو الإمام علي عليه السلام قد احتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو طفل صغير، حيث تذكر بعض النصوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد
تكفله بالتربية قبل البعثة، من خلال التخفيف من مسؤوليات الانفاق – أو المسؤوليات الاقتصادية إذا صح التعبير – عن أبي طالب.
وبدأ الرسول صلى الله عليه وآله في هذه المرحلة بتربية علي عليه السلام، وبذلك – أيضا – يجمع المسلمون – تقريبا – أن عليا عليه السلام كان أول من أسلم، وأنه لم يعرف في حياته عبادة الأصنام أو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر يجمع عليه المسلمون، ولذلك عندما يذكر اسمه جمهور المسلمين، يخصونه بدعاء (كرم الله وجهه)،
وهم بذلك يشيرون إلى هذه الخصوصية لعلي عليه السلام، وهذه الخصوصية إنما كانت –
أيضا –

بحسب النظر إلى الظروف التاريخية ومن هذه الزاوية، بسبب إعداد رسول الله صلى الله
عليه وآله لعلي عليه السلام.
طبعا، العنصر الغيبي، في الاصطفاء والإعداد - كما ذكرنا - قائم في نفسه مع العناصر الأخرى، ولكن من هذه الزاوية وهذا الجانب نرى - أيضا - هذه الحقيقة قائمة.
مضافا إلى ذلك، ما تشير إليه النصوص التاريخية وتؤكده روايات بعض الأشخاص - حتى
ممن لم يكن يميل إلى علي عليه السلام من الناحية الروحية والنفسية - من إعداد رسول
الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام علميا ومعنويا، فيما كان يساره في ليله ونهاره، لأن عليا عليه السلام كان قريبا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، بحيث كان يأخذ منه العلم والأخلاق في كل مناسبة، بل في كل وقت.
والكلمة معروفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن علي عليه السلام بهذا الشأن، أما عن النبي، فهي عندما قال: (أنا مدينة العلم وعلي بابها) (١) وأما

---

(١) البحار ٢٨: ١٩٩، حديث ٦، وجاء في مستدرك الصحيحين ٣: ١٢٦، عن ابن عباس ما لفظه، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة
فليأت الباب، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وكذلك جاء في كنز العمال ١١: ٦٠٠، حديث ٣٢٨٩٠، و ٦١٤، حديث ٣٢٩٧٨، و ٣٢٩٧٩، و ١٣: ١٤٧، حديث ٣٦٤٦٣.

عن علي عليه السلام، فهي عندما قال: (علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب) (١)

هذه الحقيقة إذا أردنا أن ننظر إليها من الناحية التاريخية والمادية، نراها كانت قائمة من خلال هذا الاقتراب في دائرة علي عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله، حيث تربى في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن عمه، تزوج من ابنته،

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخل إلى بيت علي كما يدخل إلى بيته، وعلي يدخل على رسول الله كما يدخل إلى بيته.

هذه العلاقة كانت موجودة بدرجة عالية، الأمر الذي أثار – أحيانا – غيرة بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله أو حساسية، أو أي تعبير آخر يمكن أن نقوله أو نعبر عنه في هذا المقام بصورة مناسبة (٢)

---

(١) البحار ٢٦: ٢٩ – ٣٠، حديث ٣٦ و ٣٧، و ٣٣ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، في تفسير الفخر الرازي الكبير، في ذيل تفسير قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحا...)، (آل عمران: ٣٣)، قال: علي عليه السلام: علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب، قال: فإذا كان حال المولى هكذا فكيف حال النبي (صلى الله عليه وآله)، وكذلك جاء الحديث في كنز العمال ١٣: ١١٤، حديث ٣٦٣٧٢.

(٢) لهذه البيوت الطاهرة خصوصيات، قد يعجز الإنسان عن اختيار الألفاظ المناسبة المؤدبة تجاهها، عندما يريد أن يتحدث عن بعض علاقاتها، ولكن على أي حال التاريخ يشهد في كثير من النصوص، بأن هذا الاقتراب من علي عليه السلام، وعناية رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في هذا الجانب – جانب الإعداد والتعليم والتأهيل لتحمل هذه المسؤولية – كان يثير في كثير من الأحيان الحسد أو الغيرة أو غير ذلك من الانفعالات حتى في دائرة الأشخاص القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن، فمن الناحية الواقعية والخارجية – أيضا – نشاهد بأن التاريخ يؤكد على هذه العملية وهذه الفكرة والنظرية، وكان لها واقع خارجي في الرسالة الإسلامية من خلال إعداد علي عليه السلام، وقد تحدث علي عليه السلام شخصيا فيما روي عنه ذلك، كما
تحدث أئمة أهل البيت – أيضا – عن ذلك، وهو ما سوف نشير إليه – إن شاء الله – في
بعض الأبحاث الآتية.

الإعداد والنظام العام
ومن الطبيعي – أيضا – أن نفترض، كما نفترض في عقائدنا بأن هؤلاء الأئمة يمكن أن تتحقق لهم الإمامة دون هذا الإعداد، لأن الله تعالى قادر على كل شئ، ولا يمنعه شئ من إلهام الأشخاص والأفراد – لحكمة – بكل المعلومات دون ذلك الإعداد السابق،
هذا الشئ يمكن أن نفترضه، وفيه الكثير من الواقع والحقيقة بالنسبة إلى الكثير من الأفراد الذين عرفهم التاريخ (١) ولكن في الوقت نفسه يمكن أن نفترض أن النظام العام في الحركة الاجتماعية للإنسان يراد لها أن تسير في الكثير من الموارد، حسب النظام العام، وليس من المفروض لها دائما أن تكون خارجة عن النظام العام، إلا بقدر الحاجة إلى هذا الاستثناء، كما هو الحال في موارد المعجزة مثلا، وهذا يعني أنه ما دام الإعداد ممكنا حسب النظام العام، فسوف يتم كذلك ويكون الاستثناء عند الحاجة والضرورة، فيتم الإعداد من خلال نظام آخر وهو النظام الغيبي.
إذن، فالطريق الطبيعي للإعداد الأفضل والتأهيل الأكمل إنما يكون في دائرة البيت القريب،
ويمكن أن نرى هذا الشئ في معالم أخرى من التاريخ، وفي مفردات وصور عديدة.
وهذه الظاهرة نراها قد تجسدت – أيضا – في الأسر العلمية الشريفة في تاريخ جماعة أهل البيت عليهم السلام، حيث قامت بأعمال شريفة في هذا التاريخ، وتحملت مسؤوليات
كبيرة في مختلف أدوار التاريخ.

---

(١) مثل يحيى وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء، ومثل الإمام الجواد والإمام الهادي عليهم السلام وغيرهما.

فإننا عندما ننظر إلى تاريخ ما بعد الغيبة الصغرى، بل حتى في تاريخ زمن أئمة أهل البيت عليهم السلام نلاحظ أن هناك ظاهرة كانت موجودة وقائمة في جماعة أهل البيت،

وهي ظاهرة وجود الأسر العلمية، مثلا أسرة زرارة بن أعين، هذه الأسرة كانت تعرف كأسرة بحيث كان جميع رجالها ثقات، أو أسرة بني فضال هذه الأسرة كانت – أيضا –

تعرف كأسرة، أو أسرة الأشعريين الذين أقاموا أسس العلم في مدينة قم المقدسة، أمثال سعد الأشعري وأسرته، وهكذا نلاحظ أسرة بني بابويه الذين كان لهم دور عظيم جدا كأسرة، حيث عندما نرجع إلى التاريخ نجد أن هؤلاء يمثلون عددا كبيرا جدا من العلماء والفضلاء الذين كانوا يتحملون هذه المسؤوليات، وهكذا يتسلسل هذا الأمر، ولا أريد الآن أن أطيل الحديث في ذكر الشواهد، ولكن عندما يرجع الإنسان إلى التاريخ، يجد أن هذا الأمر كان من الأمور الواضحة جدا في جماعة أهل البيت عليهم السلام وفي علماء أهل البيت، بحيث كانت هناك أسر علمية تتوارث هذا العلم جيلا بعد

جيل حتى أوصلت هذا العلم إلى هذا العصر، وهذا التوارث إنما كان باعتبار هذه الخصوصية، وهي إن عملية الإعداد والتربية التأهيل في إطار البيت الواحد تكون أسهل

مما تكون هذه القضية في خارج البيت الواحد (١)
البعد الاجتماعي
البعد الرابع: البعد الاجتماعي، وهو ما يترتب على الاختصاص بأهل البيت من مصالح اجتماعية في التأثير على حركة الأمة وهدايتها وارتباطها بالرسالة الإسلامية وصاحبها، حيث أن هذه الإمامة التي تريد أن تقوم بهذه المسؤوليات الكبيرة أو الضخمة
في المجتمع الإنساني تحتاج إلى مؤهلات اجتماعية، كما تحتاج إلى المؤهلات الروحية
والفكرية.
كما أن الناس في حركتهم الاجتماعية والروحية والنفسية يتأثرون بمثل هذا العامل الإنساني، وينظرون إلى الشرف والأصالة في

---

(١) في العصور المتأخرة كانت هناك أسر علمية أخرى من قبيل أسرة آل بحر العلوم، وأسرة آل كاشف الغطاء، أسرة آل شيخ راضي، وآل الجواهري، وآل الصدر، وآل شبر، وهكذا أسرة الشيخ الأنصاري – من بناته – وقبلهم الشيخ المجلسي، والوحيد البهبهاني، وغيرهم الكثير.
ولا ينبغي أن يذهب الظن إلى أن هذا الإعداد لا يمكن أن يتم إلا من خلال ذلك، بل قد نجد في التاريخ أشخاص متميزين في التقوى والعلم والشجاعة لم يعرفوا بأنهم من أبناء هذه الأسر، ولكن المقصود أن الأسرة تمثل عاملا طبيعيا للإعداد.

الانتماء وتكامل الأسرة والعائلة والعشيرة والقبيلة نظرة معنوية وإنسانية واجتماعية خاصة.
أما بالنسبة إلى حاجة الإمامة إلى المؤهلات الاجتماعية، فهو من الأمور التي يشار إليها في أبحاث علم الكلام.
من قبيل أن لا يكون في النبي أو الإمام نقص في الأعضاء مخلا بوضعه الاجتماعي، أو أن لا يكون النبي أو الإمام وضيعا في المجتمع الإنساني أو من عائلة وضيعة وغير شريفة، أو ممتهنا لحرفة ومهنة وضيعة، إلى غير ذلك من القضايا التي يشار إليها في علم الكلام عند الحديث عن مواصفات الأنبياء والأئمة الذين يتحملون هذه المسؤولية.
وأما بالنسبة إلى تفاعل الناس وتأثرهم بهذا العامل الاجتماعي، فهو أمر مشهود في تاريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية السابقة واللاحقة يتفاضلون فيه، ويفتخرون ويتأثرون به، لأنه عامل إنساني واقعي في الحركة التاريخية وله تأثير إيجابي في حركة الأمم وبناء المجتمع، وإن لم يكن من العوامل المؤثرة في تكامل الإنسان كفرد عند الله تعالى، أو مما يدخل في حسابه يوم القيامة، كما تشير إلى ذلك النصوص الدينية، ومنها قوله تعالى: (فإذا نفخ في الصور

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (١) ولكنه على أي حال من العوامل المؤثرة في حركة التاريخ الإنساني والعلاقات الإنسانية (٢).

خلفيات البعد الاجتماعي

ولعل مرجع هذا العامل إلى عدة قضايا، نفسية، واجتماعية، وفطرية.

أما القضية النفسية، فهي تأثر الإنسان روحيا بمعالم العز والشرف والكرامة والمنجزات العلمية والاجتماعية.

وأما القضية الاجتماعية، فهي – ما أشرنا إليه في البعد الثالث – من أن التأهيل والإعداد في بيوت الشرف والكرامة والعز والطهارة، يكون بصورة طبيعية لتحمل المسؤوليات، وإنها تنبت الشرف والكرامة والعز والطهارة بموجب السنة والقاعدة القرآنية (والبلد الطيب

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) تذكر بعض النصوص استثناءا في التأثير لنسب رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم القيامة، وهو أمر يحتاج إلى بحث علمي واجتماعي لهذه النصوص، لا مجال له في حديثنا في الوقت الحاضر.

يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا
نكدا...) (١) وهو أمر يدركه الناس من خلال رؤيتهم للتاريخ وحركة النظام العام للمجتمع الإنساني، وإن كان قد يشذ بعضهم عن هذه القاعدة.
ولذا ورد التأكيد في الإسلام، في عدة موارد على هذا الاتجاه في الزواج وفي المشورة، وفي المصاحبة والصداقة والمعاشرة.
وأما الجانب الفطري، فهو يرتبط بنظرة الإنسان الفطرية التي أكدتها الشريعة الإسلامية، وهي أن تكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة يقوم على تكامل الأسرة والعائلة والقبيلة.
وهذا بحث اجتماعي مهم له مجال آخر، ولكن بنظرة إجمالية يمكن أن نقول: أن الإسلام
يرى أهمية تكامل الأسرة وارتباطها وامتدادها التاريخي في القبيلة والعشيرة، وإن ذلك هو الطريق الأفضل لتكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة، إذا أردنا تنظيم هذا المجتمع بصورة صحيحة ومحكمة وقوية.
وإن هذا التنظيم القوي، يعتمد على عنصرين رئيسيين:
العنصر الأول: هو إحكام علاقات الأسرة التي يفترض أن يتم إحكامها، كما حث الإسلام على ذلك من خلال الزواج والعلاقات

---

(١) الأعراف: ٥٨.

الزوجية القائمة على أساس الحقوق المتبادلة، وتهيئة ظروف الاستقرار والسكن والمودة والرحمة، وكذلك من خلال الارتباط بين العشائر والقبائل والأسر المختلفة، ولذلك كان من الاتجاهات في تكوين الأسرة أن يتزوج الإنسان من خارج دائرة الأقربين، لإيجاد حالة التكامل الاجتماعي العام بين المفردات الرئيسية في المجتمع، وهي القبائل والأسر، وقد يكون في ذلك - أيضا - تكامل جسمي (فسيولوجي)، كما يذكره
الأطباء، ولكن فيه - أيضا - تكامل اجتماعي من الناحية الاجتماعية، لأن إيجاد الروابط بين القبائل والأسر يكسر الحواجز النفسية والاجتماعية الموجودة بين هذه القبائل والعشائر والأسر التي قد تكون معيقة لتكامل المجتمع وحركته عندما تصبح كبيرة وعالية، وتمنع من وحدة المجتمع وتخلق العصبية العشائرية أو الاجتماعية، وبذلك
تصبح الأسرة والعشيرة أحد الأعمدة الأساسية والرئيسية في البناء القوي للمجتمع في نظرية الإسلام.
العنصر الثاني: هو قضية بناء العشيرة والقبيلة نفسها، حيث يمكن أن يقال بأن هناك اتجاه في الإسلام إلى تثبيت دعائم العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية، لا إلى تفكيكها وإضعافها، وذلك من خلال ما ورد في التأكيد على صلة الأرحام، بدرجة تصل -
أحيانا - إلى

مرحلة الإلزام في الوجوب والحرمة، حسب اختلاف هذه الصلة ودرجتها، فإن قطيعة الرحم
حرام، ووجود أصل الصلة واجب من الواجبات الشرعية.
وكذلك – من خلال ما يشير إليه القرآن الكريم – في قضية التوارث، حيث أن التوارث في
المال وضع في إطار علاقات الأرحام، لقوله تعالى: (... وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتب الله...) (١) وحتى وصل بها الإسلام إلى
العلاقات البعيدة نسبيا، من قبيل علاقة الولاء، وهي عندما يدخل الإنسان في ولاء أسرة من الأسر وتتقطع سلسلة الأقرباء من المواريث، فيتحول الميراث إلى الأولياء، أي إلى أولئك الذين يكونوا قد دخلوا في العشيرة عن طريق علاقة الولاء، إذن، هذا يعبر عن اتجاه لتحكيم هذه الأواصر وربط بعضها ببعض.
وكذلك نلاحظ أن من التشريعات الموجودة في النظرية الإسلامية التي تؤكد هذا الاتجاه، قضية وقف الذرية، فإن الوقف على أقسام – كما يعرف الإخوة الأعزاء والأفاضل الدارسين للفقه – وأحد أقسام الوقف هو الوقف الذي يوضع لخصوص الذرية، أي
يتسلسل في

---

(١) الأنفال: ٧٥.

الورثة، ويتحول في طبقات الورثة، حسب شرط الواقف، أو يشركهم فيه، بكل طبقاتهم
ومراتبهم، فإن هذا الحكم يؤشر على أن الإسلام يتجه إلى تحكيم أواصر العشيرة والأسرة الواحدة.
الإسلام والعلاقات العشائرية
وكذلك المفاهيم الواسعة التي طرحها القرآن الكريم في تفسير المفردات الاجتماعية وطبيعة علاقاتها، من تقسيم الإنسان إلى شعوب وقبائل قال تعالى: (يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن
الله عليم خبير) (١) فإن الناس وإن كانوا قد خلقوا من ذكر وأنثى، ولكنهم قد قسموا إلى شعوب وقبائل، لتقوم علاقات التعارف والتعاون بينهم، فهو تقسيم معترف به
إسلاميا.
وهكذا عندما يتحدث القرآن الكريم عن موضوع (الولاء)، حيث يشير - أيضا - إلى أن
قضية الولاء في داخل العشيرة أمر طبيعي مثل ولاء الآباء والأبناء والإخوان، فهو ولاء مقبول، ولكنه يجب أن يكون في إطار ولاء الله تعالى، ولا يصح أن يخرج عن حالة
الولاء لله تعالى،

---

(١) الحجرات: ١٣.

أو أن يكون في مقابل الولاء لله تعالى، وأعطى القرآن الكريم عناوين عديدة لذلك في التأكيد على هذا النوع من الولاء في آيات عديدة (... وأولوا الأرحام
بعضهم أولى ببعض في كتب الله...) (١)، وكذلك التأكيد عليه في مجال الانفاق على ذوي القربى - كالتأكيد على الانفاق على المساكين والمحتاجين - كمورد
من موارد الانفاق.

وفي الجملة نلاحظ في الكثير من معالم الشريعة الإسلامية وجود هذا الاتجاه في تحكيم أواصر العشيرة والأسرة والقبيلة، لا على تفكيكها وإضعافها.

وهذا التحكيم - كما ذكرت - إنما يكون صحيحا في إطار الشئ الأعظم والاهم من العلاقة، وهو حب الله سبحانه وتعالى، والولاء لله تعالى والارتباط به ولا يكون خارجا على ذلك، وفي داخل هذا الإطار العام، كما أكد عليه قوله تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزوجكم وعشيرتكم
وأموال اقترفتموها وتجرة تخشون كسادها ومسكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى

---

(١) الأنفال: ٧٥.

يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١)
وبهذا نرى أن الإسلام عندما أراد بناء المجتمع، وضع أحد الأسس التي تحكم هذا البناء الاجتماعي وتجعله أكثر ترابطا هو إحكام هذه العلاقات الأسرية بين هؤلاء الناس، وحاول في الوقت نفسه أن يعالج خطر تحول العشيرة إلى صنم يعبد من دون الله
بأسلوبين:
أحدهما: تأكيد أن يكون هذا الولاء ضمن إطار الولاء لله تعالى.
والآخر: هو كسر الحواجز الاجتماعية والنفسية التي قد تنمو بين الشعوب والقبائل من خلال الحث على التعارف بينها والزواج والاتصال والمساواة في القيمة الإنسانية.
وهذا الأمر في الواقع يمكن أن يذكر كأحد العناصر المهمة في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية، ولذلك نرى المجتمع ينظر إلى ابن الأسرة وإلى ابن البيت الذي يكون قريبا من صاحب البيت ينظر له ويتفاعل معه، نظرة تختلف عن نظرته إلى الأجنبي عن ذلك البيت، وهذه الحقيقة من الحقائق القائمة اجتماعيا.
ولذلك نحن ننظر إلى الزهراء عليها السلام في قربها لرسول الله صلى الله عليه وآله من خلال

---

(١) التوبة: ٢٤.

أمور كثيرة، ولكن أحد هذه الأمور التي ننظر فيها إلى الزهراء عليها السلام هي هذا القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله (١)
إذن، فهذا الانتماء يعطي الوصي والخليفة والإمام موقعا (اجتماعيا) متميزا في الحركة الاجتماعية، ولعل ذلك أحد العوامل والأسباب في هذا الامتداد.

---

(١) ذكرت في محاضرة سابقة، أن الزهراء عندما أرادت أن تستثير المسلمين تجاه مظلوميتها، تحدثت في البداية عن حقوقها المغتصبة، في الخطبة المعروفة التي يتحدث عنها خطباء المنبر، ولكن في حركة أخرى دخلت الزهراء عليها السلام إلى المسلمين من هذا المدخل، أي مدخل أنها ابنة رسول الله، ويجب أن تحمى باعتبار هذه القرابة وهذه الصلة برسول الله، وعندما تحدثت مع الأنصار الذين كانوا قد دخلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في ميثاق وعهد بأن يحموا رسول الله وأهله، وقد تخلفوا عن هذه الحماية بعد وفاته، تحدثت معهم من هذا المدخل وخاطبتهم بصورة خاصة (أيها بني قبله)، وهذا المنطلق يعبر عن حقيقة كانت قائمة في الحالة الاجتماعية حينذاك.

نظرية الإمامة
الفصل الثالث:
الأئمة الاثنا عشر

وهنا قد يثار سؤال ثالث يرتبط بهذا الموضوع، وهو أنه إذا كان استمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام ضروريا، فماذا عن تعين عدد الأئمة الهداة في الاثني عشر إماما فقط، دون أن يكون باب الإمامة مفتوحا في أهل البيت بصورة عامة، كما يذهب إلى ذلك بعض فرق الشيعة، كالإسماعيلية والزيدية، فما هو تفسير هذه الظاهرة التي يتبناها خصوص الإمامية الاثني عشرية، حيث أنهم يتبنون ضرورة استمرار النبوة في الإمامة، كما يتبنون استمرار ضرورة أن تكون هذه الإمامة في خصوص أهل البيت، ويتبنون في الوقت نفسه أن تكون الإمامة في أثني عشر دون التوسع في أعداد الأئمة؟ وعندما أتحدث عن الإمامة – طبعا – أتحدث عن الإمامة المعصومة التي تكون في هذا العدد الخاص، فما هو تفسير هذه الظاهرة؟

وفي هذا الموضوع يوجد جانبان من البحث:

أدلة العدد المحدود
الجانب الأول: جانب يرتبط بعلم الكلام، وهو جانب مهم جدا، يذكر في هذا المجال مجموعة من الأدلة والقرائن التي تؤكد هذه الحقيقة، وسوف نتناول – إن شاء الله في القسم الثاني من البحث – هذه الأدلة والقرائن، ولكن أشير إلى بعض عناوينها:
أولا: هناك نصوص عديدة يجمع عليها المسلمون وردت عن النبي صلى الله عليه وآله، تؤكد أن الخلفاء بعد رسول الله هم هذا العدد، أي أثنى عشر خليفة (١)، وهذه النصوص
يمكن أن يستدل بها على ثبوت هذه الحقيقة.
ثانيا: أن هناك نصوص أخرى – أيضا – وردت عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد هذه الحقيقة (٢) (وأهل البيت أدرى بما فيه)، أي أن عليا عليه السلام لا يشك أحد من المسلمين في صدقه ومعرفته، وهكذا بالنسبة إلى فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام،
لا يشك أحد من المسلمين في صدقهم وعلمهم ومعرفتهم، فعندما ترد النصوص عن أئمة أهل

---

(١) راجع بحار الأنوار ٣٦: ٢٢٦ – ٣٧٣، باب نصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأئمة عليهم السلام، وصحيح البخاري ٥: ٩٠ و ٩٢، صحيح الترمذي ٢: ٣٥، وغيرها من الصحاح.
(٢) البحار ٣٦: ٣٧٣ – ٤١٤.

البيت عليهم السلام تجدهم موضع الاحترام والتصديق المطلق من قبل المسلمين، وهي تؤكد – أيضا – هذه الحقيقة، وهذا يمكن – أيضا – أن يشكل قرينة ودليلا وبرهانا على صحتها.

ثالثا: يؤكد ذلك – أيضا – شخصية أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تتميز هذه الشخصية بمواصفات لا نعرف لها نظيرا في التاريخ الإسلامي، في خصائصها ومواصفاتها،

والحديث في هذا الموضوع – كما قلت – له مجاله الخاص، وسوف نشير إلى هذه الخصائص

والمواصفات، بحيث يتبين بصورة واضحة أن هؤلاء الأئمة الاثني عشر يتصفون بمواصفات

وخصائص لا يشبههم فيها أحد من الناس.

رابعا: أن دراسة الجماعة الصالحة – التي التزمت بهذه العقيدة وآمنت بها – في خصائصها ومواصفاتها وطبيعة حركتها ونموها وتطورها المستمر في خطها البياني يؤكد –

أيضا – هذه الحقيقة، وهذا بحث يحتاج إلى شرح وتوضيح، يأتي في محله – كما قلنا – إن

شاء الله.

وهذه الأمور الأربعة نؤجل البحث فيها إلى وقت آخر.

تفسير العدد المحدود
ولكن يبقى عندنا الجانب الآخر، وهو ما نريد أن نبحثه في عرض النظرية وهو تفسير هذه
الظاهرة مع قطع النظر عن هذه الأدلة، ما هو تفسير أن يكون العدد محدودا بهذه الصورة، مع أن الرسالة الإسلامية رسالة خاتمة، والأمة الإسلامية أمة باقية حتى تقوم الساعة؟ ولماذا توضع الإمامة محصورة بعدد معين من الناس، ويكون هذا العدد هو
أثني عشر؟
هذه القضية تحتاج إلى تفسير كبقية الظواهر الكونية والاجتماعية، بما ينسجم مع نظام الحكمة الإلهية، ومع قطع النظر عن الأدلة السابقة المشار إليها التي نستدل بها في علم الكلام، من أجل تصديق هذه الظاهرة، وبيان نسبتها إلى الإسلام وإلى الرسالة الإسلامية.
في تفسير هذه الظاهرة يمكن أن نشير إلى أمرين رئيسيين:
التفسير الغيبي للظاهرة
الأمر الأول: هو الأمر الغيبي، فقد ذكرنا في حديثنا عن النظرية وهنا – أيضا – نذكر ذلك، وسوف نبقى نؤكد هذا الموضوع أن الرسالة الإسلامية وكل الرسالات الإلهية
هي ظواهر غيبية، مرتبطة بعالم

الغيب، وحياة الإنسان الذي أرسلت إليه هذه الرسالات – أيضا – فيها جانب غيبي، لأن الله تعالى وإن كان قد خلق الإنسان من طين لازب، ومن ثم ففيه هذا العنصر المادي، فهو لحم وعظم ودم، وغير ذلك مما يتمثل فيه الجانب المادي في الإنسان، ولكن
الله تعالى قد خص الإنسان بخصوصية دون غيره من المخلوقات المنظورة، وهو أنه نفخ
فيه من روحه، وهذه الخصوصية لا نراها في أي موجود آخر يتحدث عنه القرآن الكريم، وقد
تكون موجودة في مخلوقات عالم الغيب التي لا نعرفها، وهي خارج النظام الكوني المشهود.
كما أن حياة الإنسان ليست مختصة بهذه الحياة المادية وهي الحياة الدنيا، وإنما الحياة الحقيقة لهذا الإنسان الدائمة الأبدية المستمرة هي الحياة الآخرة وهي حياة غيبية.
ثم أن هذه الحياة الدنيوية فيها جانب غيبي في مستقبل زمانها وتاريخها، وهو ما تشير إليه بعض الآيات والروايات العديدة عن أهل البيت، من (الرجعة) التي قد تمثل دورة ومرحلة جديدة للحياة الإنسانية، تعبر عن الكمال فيها (١)

---

(١) الرجعة فكرة ورد تأكيدها في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى حد التواتر أو التظافر، وأشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى
خروج من سبيل)، غافر: ١١، ويوجد فيها تفاصيل لا تبلغ حد القطع واليقين، ولا مجال لبحثها في هذا العرض، ولعلنا نوفق لذلك في كتاب آخر لهذه الموسوعة، نتناول فيه عدد من القضايا والأفكار.

إذن، فالرسالة رسالة غيبية، والإنسان نفسه فيه جانب غيبي، وحياة الإنسان – أيضا – فيها جانب أعظم وأهم وهو الجانب الغيبي، فعنصر الغيب لا بد أن ننظر إليه دائما عندما نريد أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بالإنسان وحركته، ولا يمكن أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بحركة الإنسان بالتفسيرات المادية المحضة، أو المدركة والمشهودة وحدها، وإنما يمكن أن يكون وراء الكثير من الظواهر القائمة في حياة الإنسان أسباب وعناصر غيبية، لا يمكن للإنسان أن يعرف كل أبعادها وكل خصوصياتها.

وفي هذه الظاهرة يمكن أن نفترض وجود العنصر الغيبي – أيضا – لأن الله سبحانه وتعالى يصطفي من عباده من يشاء وله في أولياءه أحكام خاصة، ذات علاقة بهؤلاء الأنبياء، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة آيات.

كما أن هذا الأمر ليس أمرا غريبا في تاريخ الرسالات الإلهية، فمثلا

نلاحظ أن الأنبياء أولي العزم كانوا خمسة، وقد يطرح هذا السؤال: لماذا لم يكونوا ستة أو سبعة أو عشرة، أي لماذا كان اختصاص النبوة بهذه الدرجة العالية خاصة بهذا العدد من الأنبياء المعين، فنحن نعرف من خلال حركة النبوات أن الأنبياء أولي العزم الذين أشار إليهم القرآن الكريم هم خمسة (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين
ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم
وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) (١) ونرى أن هذه ظاهرة في النبوات أشار
إليها القرآن الكريم، قد لا نعرف لها تفسيرا محددا إلا التفسير الغيبي في رؤية حركة التاريخ الرسالي.

وهكذا نلاحظ ذلك في الكثير من الظواهر التي نراها في الإسلام من قبيل اختصاص العبادات بهذه العبادات الخاصة، ولم تكن هناك عبادات أخرى، واختصاص الصلوات اليومية
الواجبة بالصلوات الخمسة، واختصاص هذه الصلوات الخمسة بالركعات السبعة عشر، إلى غير
ذلك مما نراه من اختصاصات في الإعداد، الذي يمكن أن يكون له تأثير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولكنه تأثير في

---

(١) الأحزاب: ٧.

الغيب غير المنظور والمعروف لنا بصورة كاملة، كما أن ظاهرة وجود الإعداد المعينة الخاصة في الاصطفاء ليست ظاهرة مختصة بهذه القضية وفي هذه الأمة حتى يقال أن هذه
ظاهرة غريبة، وإنما توجد ظواهر أخرى مماثلة لها في الأمم السابقة.
ومن هذه الظواهر التي تقرب هذا المعنى، ظاهرة النقباء الاثني عشر في بني إسرائيل، والذين يشير إليهم القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: (ولقد أخذ
الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا
وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم
الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا
حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنت
تجري من تحتها الأنهر فمن كفر بعد ذلك منكم فقد
ضل سواء السبيل) (١)
وقضية النقباء الاثني عشر - أيضا - هذه قد تكون المثال لما يجري في الأمة الإسلامية الخاتمة، حيث أشرت في حديث سابق ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله
من تطابق الأحداث في الأمة الإسلامية بما يجري في الأمم السابقة حذو النعل بالنعل، كما جاء في تعبير بعض

---

(١) المائدة: ١٢.

النصوص أو القذة بالقذة كما جاء في بعض آخر منها، وهي نصوص متواترة يرويها جميع
المسلمين بهذا المضمون.
وقد تكون ظاهرة الاثني عشر إمام متطابقة مع تلك الظاهرة التي شهدتها أمة بني إسرائيل التي هي – أيضا – من الأمم المصطفاة والمنتخبة والتي فضلها الله سبحانه وتعالى في بعض أدوار التاريخ، وجعل منهم أنبياء وملوكا، وخصهم – أيضا – بهذه الظاهرة الاثني عشرية – إذا صح التعبير – في خصوصية بني إسرائيل، وهي نكتة أخرى يمكن أن تؤكد الجانب الغيبي، أو تضيف إليه بعدا آخر.
وكذلك يؤكد هذه الظاهرة في بعدها الغيبي، ما ورد في شأن انتخاب رسول الله صلى الله
عليه وآله للنقباء الاثني عشر من الأنصار في بيعة العقبة، من قوله صلى الله عليه وآله – على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد –: (أخرجوا إلي اثني عشر منكم، يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم ولا يجدن أحدكم في نفسه أن يؤخذ
غيره فإنما يختار لي جبريل) (١)
وبذلك يشير هذا الحديث إلى خصوصيتين:
إحداها: ذات علاقة بالعدد المذكور من تاريخ الأنبياء، وهو عدد

---

(١) كنز العمال: ١٠٣، برقم: ٤٦٥.

الحواريين الاثني عشر، الذي يؤكد – أيضا – هذه الظاهرة، وقد ورد تأكيد هذا العدد فيهم في روايات أخرى.
ثانيها: أن هذا الاختيار هو اختيار غيبي، يرتبط بقرار إلهي يبلغه جبرائيل عليه السلام.
إذن، فهذا الجانب الغيبي يمكن أن يكون تفسيرا لهذه الظاهرة.
التفسير التاريخي للظاهرة
الأمر الثاني: الذي يمكن أن نذكره بهذا الصدد في تفسير هذه الظاهرة، هو أمر له بعد مادي، بعد في فهم حركة التاريخ، وتفسير هذه الحركة، وذلك بأن نفترض بأن المدة
(الاعتيادية) لهؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين تحدث عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله (الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام) هي بين (٣٥٠ – ٤٠٠) سنة، إذا كانت أعمارهم أعمار اعتيادية بالنسبة إلى الظروف التي كان يعيشها الناس في الآباء والأبناء.
وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن نقول أن هذه المدة تمثل الدورة الزمنية التي يمكن أن يتم فيها إعداد الأمة الخاتمة إعدادا كاملا في جميع أبعادها، بحيث تصبح أمة مؤهلة لاستلام الخلافة الإلهية كأمة

وجماعة، وذلك عندما تصبح أمة متكاملة اجتماعية بدرجة يكون التكامل فيها كصفة ثابتة،
وتنتقل بذلك - حينئذ - إدارة الحياة الاجتماعية من الأشخاص المنتجبين الأصفياء الذين كانوا ينتخبون لها كأنبياء وأئمة للقيام بدور الخلافة والحكم إلى الأمة الجماعة، أي عندما تبلغ الأمة مرحلة دور الوحدة الإنسانية الكاملة في تطبيق الرسالة الإلهية، ودور تجسيد إرادة المستخلف الذي هو الله الذي يؤهلها لهذه الخلافة الإلهية، بعد أن كانت البشرية قد مرت بأدوار الوحدة الفطرية والاختلاف في العبادة والاختلاف في الرسالة، ويبقى دور الإمامة فيها - عندئذ - دور المحافظة على هذا التكامل والشهادة والرقابة على مسيرة الأمة وإقامة الحجة على الناس، وكذلك المحافظة على العلاقة والرابطة بين السماء والأرض في حفظ النظام والحياة.. إلى غير ذلك من الخصوصيات الأخرى التي أشارت إليها النصوص الشريفة (١)

---

(١) هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من البحث والتوضيح لخصوصياته وتفاصيله، قد نوفق لتناوله عند تناول موضوع (الرجعة)، حيث يتبين من خلال ذلك البحث تفسير عدة قضايا مهمة:
١ - حقيقة الرجعة.

منهج البحث التاريخي للإعداد
وهذا الموضوع وهو الدورة الزمنية لإعداد الأمة، وإن كان يحتاج إلى بحث تاريخي واجتماعي واسع له مجال آخر، ولكن أشير هنا إلى بعض أبعاده وخطوطه النظرية والمنهجية
كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة الرسالية.
الأول: بحث نظرية الأدوار التي مرت بها البشرية في الوحدة والاختلاف وعوامل الوحدة والاختلاف فيها، ومنهج الرسالات الإلهية في معالجة هذه الأدوار، وتوضيح الهدف الرئيس لها وهو إقامة الوحدة البشرية على أساس الرسالة الإلهية ودعائم الحق والعدل المطلق.
وهذا الهدف هو ما أكدته الرسالات الإلهية والقرآن الكريم وبشر به جميع الأنبياء، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وذلك في الأخبار عن قيام المهدي عليه السلام من أهل البيت الذي يحقق هذا الهدف، فيملأ الأرض

قسطا وعدلا، وهو ما تفرضه – أيضا – طبيعة الرسالة الخاتمة الإسلامية، التي لا بد أن تحقق في إطارها الخاص ومرحلتها الخاصة هذا الهدف الإنساني الإلهي الكبير، مع ملاحظة أن هذا الهدف لم يتحقق – كما أشرنا سابقا – في زمن صاحب الرسالة وهو النبي
الأعظم صلى الله عليه وآله (١)
الأهداف الرسالية الثلاث
الثاني: أن تحقيق هذا الهدف الكبير في حركة الرسالة الإسلامية، يحتاج إلى تحقيق ثلاثة أمور:
الأمر الأول: إبلاغ هذه الرسالة للناس لهدايتهم بصورة طبيعية، بحيث تقام الحجة في عملية الإبلاغ على الناس، وتتحرك عملية الإبلاغ لتصل إلى البشرية كلها ولو بصورة تدريجية، ولعل هذا هو ما يعبر عنه الإسلام بقضية الظهور على الدين كله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ولو كره

---

(١) وقد تناولنا جانبا مهما من هذا البحث في كتابنا (المجتمع الإنساني في القرآن الكريم)، كما أشار إلى بعض جوانبه الشهيد الصدر قدس سره في أبحاثه الاجتماعية، ومنها (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) والسنن التاريخية في محاضرات (التفسير الموضوعي).

المشركون) (١)
والأمر الثاني: هو فرض القدرة والسلطة والهيمنة الإسلامية على البشرية كلها تدريجيا، من خلال حركة القوة والقدرة لإقامة الحق والعدل التي تواكب حركة الهداية والإرشاد وإقامة الحجة على الناس، لأن فرض القدرة بالسلطة لا بد أن يكون بعد إقامة الحجة على الناس وإبلاغ الرسالة لهم، وهو أمر آخر مطلوب في الحركة الرسالية، كما حدث ذلك بالنسبة إلى الرسالة الإسلامية في زمن النبي، حيث أن النبي صلى الله عليه وآله قام بإقامة الحجة على الناس أولا، ثم بعد ذلك قام بالتحرك السياسي والعسكري من أجل فرض هيمنة الحكم الإسلامي وإقامة الحق والعدل بين الناس، وعندها تحققت الهيمنة للإسلام على الجزيرة العربية بصورة عامة في زمانه، وإن لم تكن هذه الهيمنة – أيضا كما أشرنا سابقا – هيمنة كاملة، ولكنها كانت هيمنة عامة للإسلام على الجزيرة العربية في هذه المدة المحدودة، ولعل هذه الهيمنة السياسية العامة هي المقصودة بقوله تعالى ويكون الدين كله لله – والله العالم – قال تعالى:
(وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله
فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) (٢)

---

(١) التوبة: ٣٣.
(٢) الأنفال: ٣٩.

الأمر الثالث: المطلوب إنجازه في الرسالة الخاتمة هو تطبيق الحق العدل على الناس تطبيقا كاملا على مستوى الفرد والجماعة معا، حيث يمكن أن نفترض بأن الحجة تقام على الناس وتفرض الهيمنة العامة بعد ذلك للمؤسسة السياسية التي نعبر عنها بالدولة أو الحكومة على الناس، ولكن لا يتحقق التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية على جميع هؤلاء الناس، كما كان ذلك الأمر في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في حدود الجزيرة العربية، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله تمكن من فرض الهيمنة الإسلامية كدولة وقوة يخضع لها الناس في حدود الجزيرة العربية، بعد أن أقام الحجة عليهم، ولكن
الكثير من هؤلاء الناس كان يرتكب الآثام – أيضا – ويحرف قوانين الحق والعدل التي شرعها الإسلام، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك عند الإشارة إلى حركة المنافقين، وإلى مجتمع الأعراب ومخالفات بعض المسلمين من المؤلفة قلوبهم، أو ضعفاء الإيمان،
أو ضعفاء الإرادة والالتزام، حيث كان ترتكب مثل هذه القضايا حتى في زمن رسول الله
صلى الله عليه وآله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن – أحيانا – إنكاره وبراءته مما كان يرتكب في زمانه من هذه المخالفات، إذ لم يطبق الحق تطبيقا كاملا على جميع هؤلاء الناس حتى في حدود الجزيرة العربية.
وهذا التطبيق الكامل هو الذي نعبر عنه في ثقافتنا وثقافة

المسلمين بصورة عامة بقيام دولة الحق في زمان يخرج فيه الإمام المهدي عليه السلام فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.
ويؤكد ذلك فكرة (الرجعة) التي أشرنا إليها سابقا، حيث يفهم من بعض النصوص أنه عندما تكتمل الدورة الإنسانية لإعداد الجماعة البشرية، ويتحقق هذا الهدف العظيم الذي جاءت به الرسالات الإلهية، تبدأ البشرية بدورة جديدة يتجسد فيها حضور الأنبياء والأوصياء والأولياء والأئمة كلهم، ليمارسوا دورهم الطبيعي في الحياة الإنسانية بصورة كاملة، وفي مجتمع إنساني متكامل، ويشهد فيه الكافرون والمنافقون النصر الإلهي الذي حققه الله تعالى لأنبيائه وأوليائه، قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (١)

دراسة حركة الرسالة

الثالث: القيام بدراسة تاريخية لحركة الرسالة الإسلامية، منذ زمن النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والعباسية وحتى نهاية هذه المدة المفترضة (٣٥٠ - ٤٠٠) عاما، ومتابعة (المؤشرات)

---

(١) غافر: ٥١.

الإيجابية والسلبية في هذه المدة التاريخية ذات العلاقة بهذا الهدف الرباني، وهو تطبيق الحق والعدل بصورة كاملة، بحيث تصبح الأمة رشيدة في هذا التطبيق ومؤهلة لهذه
الخلافة الإلهية، حيث يتبين من هذه الدراسة أن هذه المدة المفترضة كانت كافية للوصول بالأمة إلى هذه الدرجة العالية من الرشد والإعداد والتهيؤ لتحمل هذه المسؤولية العظمى، لو كانت الأمور جرت على ما أمر الله به، من استلام الأئمة الاثني عشر للإمامة خارجيا بكل أبعادها، ومنها الحكم الإسلامي والمرجعية الفكرية والدينية الكاملة للمسلمين، واستثمار فرص الهداية والبلاغ الإلهي.
ونشير – هنا – إلى نماذج من هذه المؤشرات التي يمكن متابعتها في هذه الدراسة التاريخية:
موازنة حركة الهداية والسلطة
المؤشر الأول: مدة الثلاث والعشرين عاما التي قضاها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الرسالة الإسلامية والتي تمكن فيها من فرض الهيمنة الإسلامية على الجزيرة العربية، ومسيرة الدعوة الإسلامية فيها والإنجازات التي حققها النبي صلى الله عليه وآله في هذه المدة الزمنية على

المستويات الثلاثة، إقامة الحجة، وفرض السلطة، وإقامة الحق والعدل، مقاسة بالعالم.
ويلاحظ في هذا المؤشر بصورة دقيقة مجموعة خصوصيات:
الأولى: إن قيادة الحكم كانت قيادة معصومة بكل أبعادها، وهي في الوقت نفسه كانت
قيادة مؤسسة تحملت آلام محنة وبلاغ الرسالة في بدايتها وقدسية الرسول والرسالة عند
انتصار الرسالة.
الثانية: السرعة الفائقة التي تمكن أن يحقق فيها رسول الله صلى الله عليه وآله هذه
الإنجازات الفريدة على المستويات الثلاثة السابقة:
ومن هذه الإنجازات: تأسيس مشروع الأمة الواحدة المتعددة الأطراف والخصوصيات، من
جماعات متفرقة ومتناحرة ومختلفة دينيا وثقافيا، والتي حولها إلى أمة واحدة تتمتع
بمعنويات عالية، تمكنت من إدامة الزخم الرسالي، وتحمل الكثير من أعباء حمل الرسالة
والجهاد من أجل فرض سيطرتها.
ومنها: تأسيس الدولة الإسلامية، المشروع التطبيقي الفريد في تاريخ الرسالات
الإلهية، كما أشرنا إليه في حديث سابق (١)
ومنها: فرض الهيمنة على الجزيرة العربية كلها، والدخول في

---

(١) يراجع - أيضا - في ذلك بحثنا حول (العالمية والخاتمية والخلود) من خصائص الرسالة الإسلامية، وبحثنا حول الهجرة ومعطياتها.

فتح أبواب الهيمنة على المناطق المجاورة لإخضاعها.
ومنها: إقامة الحجة على الأمم المجاورة من خلال مخاطبته لها بالإسلام، بصورة أولية من خلال الرسائل والمبعوثين.
ومنها: إبلاغ الرسالة وإكمال بيانها للناس، من خلال تلاوة القرآن الكريم وحفظه وبيانات السنة النبوية العامة والخاصة، وإلى غير ذلك من الإنجازات.
الثالثة: المقارنة الدقيقة في البحث والاستنتاج وموازنة تحقيق الأهداف بين حركة الهداية وإقامة الحجة على الناس، وفرض الهيمنة السياسية على الجماعة، حيث نلاحظ:
أولا: إن رسول الله كان يبذل في البداية كل الجهود من أجل الهداية بدون استخدام القوة، وكان يقدم التضحيات الغالية من أجل ذلك، ثم يبدأ بعملية استخدام القوة كعامل
لإزالة الحواجز أمام حركة الهداية.
ثانيا: إن الهداية، وإن كانت تحتاج إلى تضحيات وتواجه صعوبات وفترة زمنية كبيرة نسبيا، ولكنها كانت في الوقت نفسه تمثل أحد العوامل المهمة في إيجاد تسهيلات أمام
حركة فرض السيطرة السياسية، وتسليم الناس للإسلام وقبول الرسالة الإسلامية.
ولذلك كانت الفترة المكية لحركة الرسول أطول زمانا من الفترة

المدنية، والنتائج لفرض السيطرة السياسية للفترة المكية كانت محدودة جدا، ولكنها كان لها تأثير مهم في النتائج التي حققها رسول الله بعد ذلك في الفترة المدنية، من تسهيل فرض السيطرة فيها على الجزيرة العربية، ومنها مكة المكرمة نفسها.
وكذلك نلاحظ – في هذا المجال – أن الجهود الكبيرة التي بذلها الرسول في معالجة قضية أهل الكتاب، وتحمله المعاناة من أجل مخاطبتهم وإقامة الحجة عليهم، كان لها دور
كبير في تحقيق نتائج الهيمنة السياسية على مناطقهم المنيعة (هو الذي أخرج
الذين كفروا من أهل الكتب من ديرهم لأول الحشر
ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من
الله فأتهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم
الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين
فاعتبروا يا أولي الأبصار) (١)
القيادة غير المعصومة
المؤشر الثاني: هو حركة الدولة الإسلامية في مدة الخلفاء الثلاثة الذين تولوا السلطة بعد الرسول والتي تم فيها إبعاد الإمام علي عليه السلام من قيادة التجربة الإسلامية بصورة عامة، والدولة الإسلامية

---

(١) الحشر: ٢.

بصورة خاصة، ولكنها مع كل ذلك كانت تتصف بدرجة معينة من الالتزام الديني العام والقرب الزمني من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث كان يعبر عنها الإمام علي عليه السلام – أحيانا – بما روي عنه من قوله: (ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة) (١) شك، وكان يقدم فيها المشورة
إلى الخلفاء ويشترك في إدارة بعض الأمور فيها، وكان يشارك فيها أخيار الصحابة وصلحائهم وخاصتهم، أمثال سلمان الفارسي – الذي يعبر عنه الرسول صلى الله عليه وآله
بسلمان المحمدي – وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود، وغيرهم كثير...
حيث تمكنت هذه الدولة في فترة ربع قرن من الزمان من أن تفرض هيمنتها على جزء كبير
من العالم المتحضر في ذلك العصر (الدولة الفارسية) بكامل أجزاءها والقسط الأعظم من
(الدولة الرومانية) وقسم كبير من إفريقيا.
وحركة الهداية وإقامة الحجة في هذه الفترة الزمنية، وإن لم تكن في مستواها المطلوب، قد واكبت حركة الهيمنة والسلطة، ولكنها كانت حركة قائمة وتحضى باهتمام
مناسب من الدولة، ولا سيما وأن النبي كان قد شرع فيها قبل وفاته.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٧٤.

ولكن هذه الحركة الرسالية (حركة إقامة الحجة) لو كانت بالمستوى المطلوب، لأمكن أن
يتحقق إنجاز أعظم على مستوى تثبيت القواعد والدعائم في هذه المنطقة، ولأمكن فرض
السيطرة الكاملة – أيضا – على جميع أجزاء الدولة الرومانية.
ولكن بسبب التلكؤ في حركة الهداية من ناحية، وإقصاء الإمام علي عليه السلام عن قيادة الحكم من ناحية أخرى، بقيت الجيوش الإسلامية تواجه مقاومة داخلية وخارجية، أي في داخل الجزيرة العربية من خلال حركة الارتداد والتمرد والاختلاف في تفسير النصوص الإسلامية، أو من خارج الجزيرة في مناطق إيران وتركيا وإفريقيا، وغيرها من المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيوش الإسلامية، وكذلك كانت تواجه مقاومة خارجية من
الدولة الرومانية في آسيا وعمقها الجغرافي في أوربا وبعض مناطق إفريقيا.
ومن ناحية ثالثة كانت الاختلافات الداخلية التي بدأت ونمت وتجذرت في زمن الخليفة
عثمان بسبب الانحرافات في السلطة، ثم تفجرت في زمن الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام من بعده بسبب تمرد معاوية على السلطة الشرعية، كل هذه العوامل كانت وراء التلكؤ في حركة الهداية.
وهذا هو ما تنبأت به الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة حول

الخلافة والبيعة والمطالبة بحقوقها (١) وما تنبأ به سلمان الفارسي - أيضا - في تلك المناسبة عندما كان يردد قول: (والله لو وليتموها عليا لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم).

وقد كان في النموذج الذي قدمه الإمام علي عليه السلام في السنوات الأربع من حكمه، بالرغم من انشغاله بالحروب الداخلية، أفضل دليل على ما كان يمكن أن يتحقق على

مستوى الخط الثالث من حركة الرسالة، وهو التطبيق الكامل للأحكام الشرعية.

مشاكل الدولة وتراجعها

المؤشر الثالث: حركة الدولة الإسلامية في عهد الأمويين

---

(١) (... والله لو تكافوا عن زمام نبذه رسول الله صلى الله عليه وآله إليه لاعتلقه، ولسار بهم سيرا سجحا، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلا نميرا فضفاضا تطفح ضفتاه ولأصدرهم بطانا، قد تحير بهم الري غير متحل منه بطائل إلا بغمر الماء وردعة شررة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

... أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرة ريث ما تنتج ثم احتلبوا طلاع القعب دما عبيطا، وذعافا ممقرا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غب ما سن الأولون، ثم طيبوا عن أنفسكم أنفسا، وطأمنوا للفتنة جأشا، وأبشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيدا، وزرعكم حصيدا فيا حسرتي لكم، وأنى بكم، وقد عميت (قلوبكم) عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون.)، البحار ٤٣: ١٥٨ - ١٥٩، حديث ٨.

والعباسيين، فإنه بالرغم من وجود فوارق رئيسية بين العهدين لا مجال لبحثهما (١).
فإنه بالرغم من القوة والمنعة اللتان كانتا تتمتعان بهما، ولا سيما في العهد العباسي والتطور الكبير الذي شهده في القدرة المادية والتنظيم الإداري والمدني، إلا إن حركة الدولة فيهما كانت تتصف – بصورة عامة – بصفتين سلبيتين رئيسيتين:
إحداهما: أن القضية الأولى والهم الأعظم للدولة في هذين العهدين كان هو فرض السلطة السياسية وبسط الهيمنة المادية والحصول على الإمكانات والثروات على الأرض،
سواء في داخل الدولة الإسلامية أو في خارجها، وهو ما نعبر عنه نظريا بالاتجاه إلى تحويل الدولة إلى دولة كسروية وقيصرية، وبذلك تخلت الدولة – لا الأمة – عن مشروعها الرسالي الأساس.
ثانيهما: الصراعات الداخلية وأولوية القضاء على الخصوم السياسيين الداخليين، سواء التقليديين منهم أو الأقربين، وممارسة عمليات القمع السياسي، حتى لو لم يكن ذا طابع عسكري مسلح، الأمر الذي أدى إلى إضعاف القدرة الإسلامية، وتبديد الطاقات

---

(١) تناولناها في بعض محاضراتنا حول الإمام الصادق عليه السلام، وسوف نتحدث عنها – إن شاء الله – عند الحديث عن أدوار أئمة أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم.

والإمكانات التي كانت تملكها الأمة.
ومن الظواهر والنتائج التي تؤشر على هذه الحقيقة:
١ – ظاهرة القمع الوحشي لحركة الإصلاح – الخروج على الدولة – المبررة شرعا في
الواقع أو الظاهر والتي بدأت بنهضة الإمام الحسين عليه السلام واستمرت بصور متعددة، مثل حركة المدينة المنورة ووقعة الحرة، وحركة ابن الزبير، وحركة التوابين والمختار الثقفي، وحركة زيد بن علي وأولاده، وحركة الحسين بن علي صاحب فخ، وقبله
محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن المثنى.
٢ – ظاهرة التوقف، ثم تراجع الدولة الإسلامية في حركة الفتح الإسلامي على أبواب أوربا الغربية وأفريقيا الجنوبية وأسيا الوسطى والجنوبية.
٣ – ظاهرة انتشار الهدى في بعض المناطق داخل الدولة الإسلامية أو المجاورة لها على
أيدي المشردين والمطاردين السياسيين من أهل البيت وأبنائهم وشيعتهم، كما في بعض مناطق الغرب العربي وإفريقيا السوداء وبلاد الترك والديلم، وغيرها من البلاد.
٤ – ظاهرة سيطرة القبائل والشعوب حديثة العهد على مقدرات الدولة، لأسباب التترس بها في الصراعات الداخلية.

٥ – ظاهرة الحروب والغزوات ذات الطابع العدواني والمكاسب المادية في الغنائم والإماء، الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الدفاع عن النفس في الشعوب المجاورة، وتنافي المشاعر القومية والطائفية.
٦ – ظاهرة الانشقاقات العنيفة في داخل السلطة الواحدة والبيت الواحد، مثل بعض الأحداث التي وقعت في زمن الأمويين والعباسيين، ومنها اقتتال المأمون والأمين ولدي هارون الرشيد.
وإلى غير ذلك من الظواهر السيئة البعيدة عن الإسلام وأهدافه وقيمه ومثله.
وبذلك يمكن أن نفهم الكثير من المواقف والإدانات التي كانت تصدر عن أهل البيت بالنسبة إلى هذه الظواهر.
مثل رفض وإدانة التعاون مع حكام الجور.
وظاهرة رفض المشاركة في الحروب والغزوات وإدانتها، مع التأكيد على وجوب المرابطة
والدفاع.
وظاهرة الطعن بشرعية أموال الغنائم وتملك الإماء في هذه العمليات العدوانية.
وكذلك يمكن أن نفهم السبب في وقوف الجيوش الإسلامية المنظمة والقوية عاجزة أمام
القبائل الأوربية الوحشية وغير المنظمة المستقرة في مجاهل أوربا والاكتفاء بالاستقرار في الأندلس وحدها،

ثم التراجع عنها.
وكذلك السبب في وقوفها عاجزة أمام قبائل المغول الوحشية وغير المنظمة في مجاهل آسيا، ثم التراجع أمامها، بحيث أدى إلى سقوط أكثر العالم الإسلامي بيدهم.
وكذلك السبب في تحول الدولة الإسلامية إلى يد الدولة المغولية في إيران أو العثمانية في تركيا... الخ.

الاستنتاج

إن دراسة هذه الأمور الثلاثة الرئيسية مع خصائصها وظواهرها ومؤشراتها، سوف ينتهي بنا إلى هذا التصور – الذي ذكرناه – في تفسير ظاهرة الأئمة الاثني عشر، وهو أن مدة إمامة هؤلاء الأئمة بحسب تقدير الحكمة والعدل الإلهي في هداية الناس، تمثل دورة زمنية مناسبة لإعداد الأمة وتأهيلها للقيام بهذا الواجب الإلهي، وهو الخلافة لله تعالى في الأرض كأمة وجماعة، وتكون بذلك مصداقا لقوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر...) (١) ولقوله تعالى: (الذين إن مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

---

(١) آل عمران: ١١٠.

وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عقبة
الأمور) (١) وبذلك يعم العدل ويقوم القسط بين الناس ويحكم الحق فيهم ويتحقق
الوعد الإلهي لهم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا
الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا
يشركون بي شيئا...) (٢)
إن هذه الدراسة، سوف توضح أن زخم الهدى والصلاح الذي تركه رسول الله في أصحابه لو
استمر بالطريقة التي شرعها الله تعالى، وبلغها رسول الله لأمته وبذل كل جهده لإقامة الحجة عليها، بحيث تحفظ فيها موازنة حركة الهداية مع حركة السلطة، كان كفيلا بتحقيق هذا الهدف الكبير في هذه المدة الزمنية، هذا الزخم الذي رأينا أثره وفعله وتأثيره في العالم المحيط بالمسلمين - بالرغم من الانحراف الذي تعرضت له في المسيرة في أهم موقع لها - بحيث تداعت أركان الدولة الفارسية بأكملها، وكادت أن تسقط به - أيضا - أركان الدولة الرومانية، وهما الدولتان المتحضرتان القويتان في ذلك العصر، وتفتح فيه أبواب القبائل الوثنية المشتتة في العالم، في مدة لا تزيد على ربع

---

(١) الحج: ٤١.
(٢) النور: ٥٥.

قرن من الزمن، كل ذلك لتحقق، لو كانت القيادة لهذا الزخم الرسالي الإلهي قيادة ربانية مدعومة بمسيرة الهدى والصلاح وإقامة الحجة على الناس، وتذليل النفوس والقلوب
قبل تذليل الأجساد والقوى المادية؟!
إن تنسيق حركة الهدى مع حركة الهيمنة وتقدمها على حركة القدرة والسلطة، قد يؤجل
بسط الهيمنة المادية بعض الوقت، ولكنه سوف يفرض تصاعدا حتميا مثمرا في الخط البياني لمسيرة الخطوط الثلاثة، الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق هذا الهدف الحتمي الإلهي العظيم (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن
الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغا لقوم
عبدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعلمين) (١)
كما أن (عملية) بسط العدل والحق المطلق والهيمنة الكاملة لها وحل جميع معالم وصور
الاختلاف بين الناس التي أشارت إليها آية سورة النور السابقة، قد تحتاج إلى وقت أطول من وقت عملية إقامة الحجة وعملية بسط الهيمنة السياسية، لأنها أكثر تعقيدا من العمليتين الأخيرتين، ولكن هذا الوقت المفترض وهذه المدة المحدودة تكفي

---

(١) الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧.

– بأذن الله – في تحقيق كل ذلك، كما تشير إليه هذه الملاحظات (١)
وعندما يتحقق هذا الهدف الكبير قد ينتهي بذلك بعض أدوار الإمامة المعصومة، بعد أن تكون الأمة قد بلغت الرشد في حركة الهداية، وأصبحت معصومة كأمة، وتمت سيطرة الإيمان والدين سياسيا حتى لا تكون فتنة ويقوم القسط بين الناس، ووضعت أوزار الخلافات والخصومات، وأصبحت العبادة لله تعالى وحده دون غيره، لا يشرك بعبادته أحد
من الناس، وتصبح الحجة لله البالغة على الناس، ويبدأ دور جديد للإمامة المعصومة هو دور (الرجعة).
ولكن شاء الله تعالى أن تجري الأمور بطريقة أخرى، لمزيد من الامتحان والابتلاء والاختبار لهذه الأمة، ولمزيد من التكامل الإنساني من خلاله مما جعل المدة أطول، فكانت الغيبة الصغرى والكبرى.

---

(١) لقد كانت هذه النتائج هي التي أشارت إليها الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة، وسلمان الفارسي في تعليقته – كما أشرنا إلى ذلك – وبهذا الصدد تنقل طريفة تعبر عن جانب من هذه الرؤية، وهي أن أحد المستشرقين البريطانيين الذين كانوا يصطحبون القوات البريطانية في فتحها للعراق في الحرب العالمية الأولى، دخل إلى مسجد الكوفة بعد الفتح وشاهد بناءه المتواضع ومواضع الإمام علي عليه السلام فيه وفي الكوفة، فعلق على ذلك بما معناه (أن لمعاوية وابن ملجم – قاتل الإمام علي – فضل كبير على الأمة البريطانية، إذ لولاهما لرأيت مسجد الكوفة هذا يعج بالقبعات البريطانية المؤمنين).

(... إن الله بلغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا) (١)

---

(١) الطلاق: ٣.